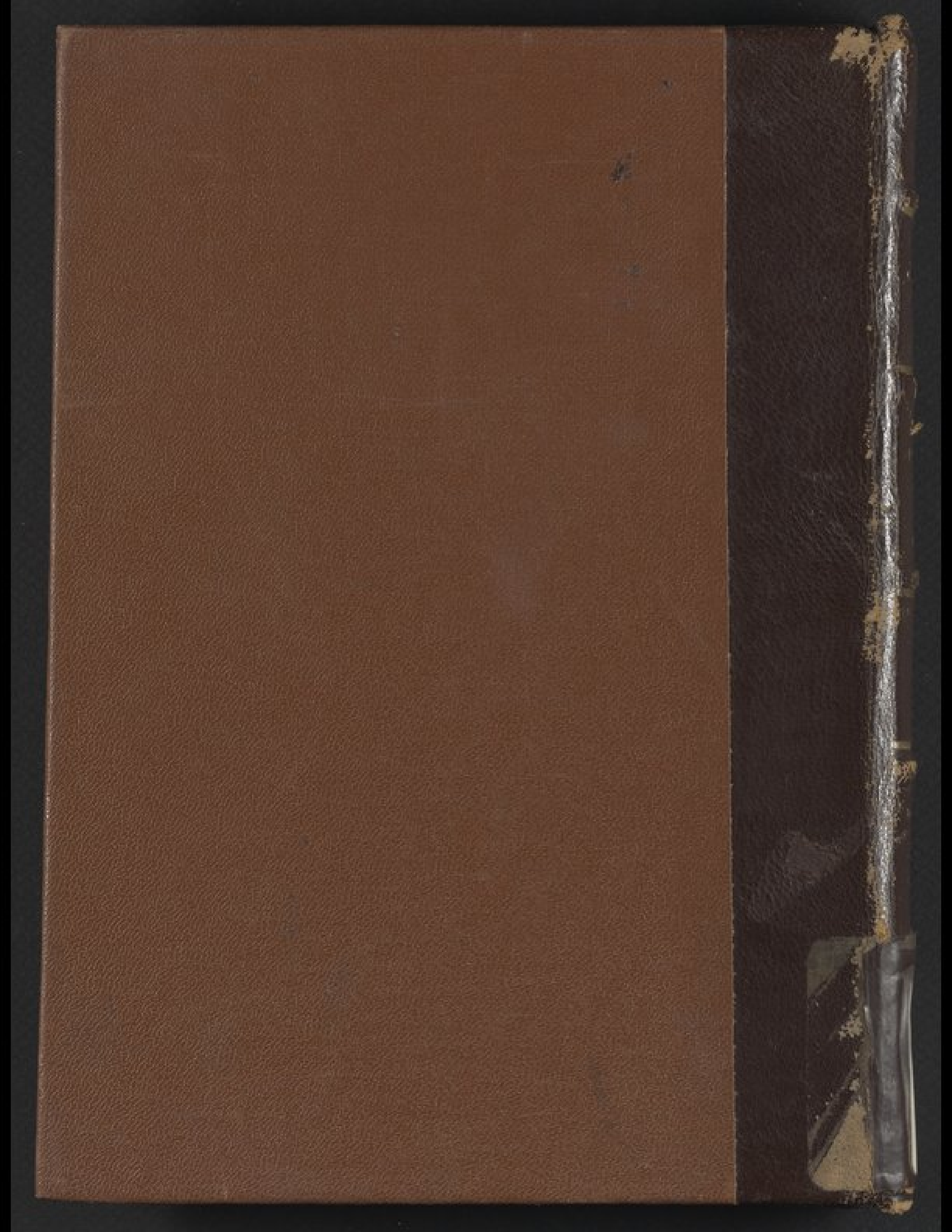
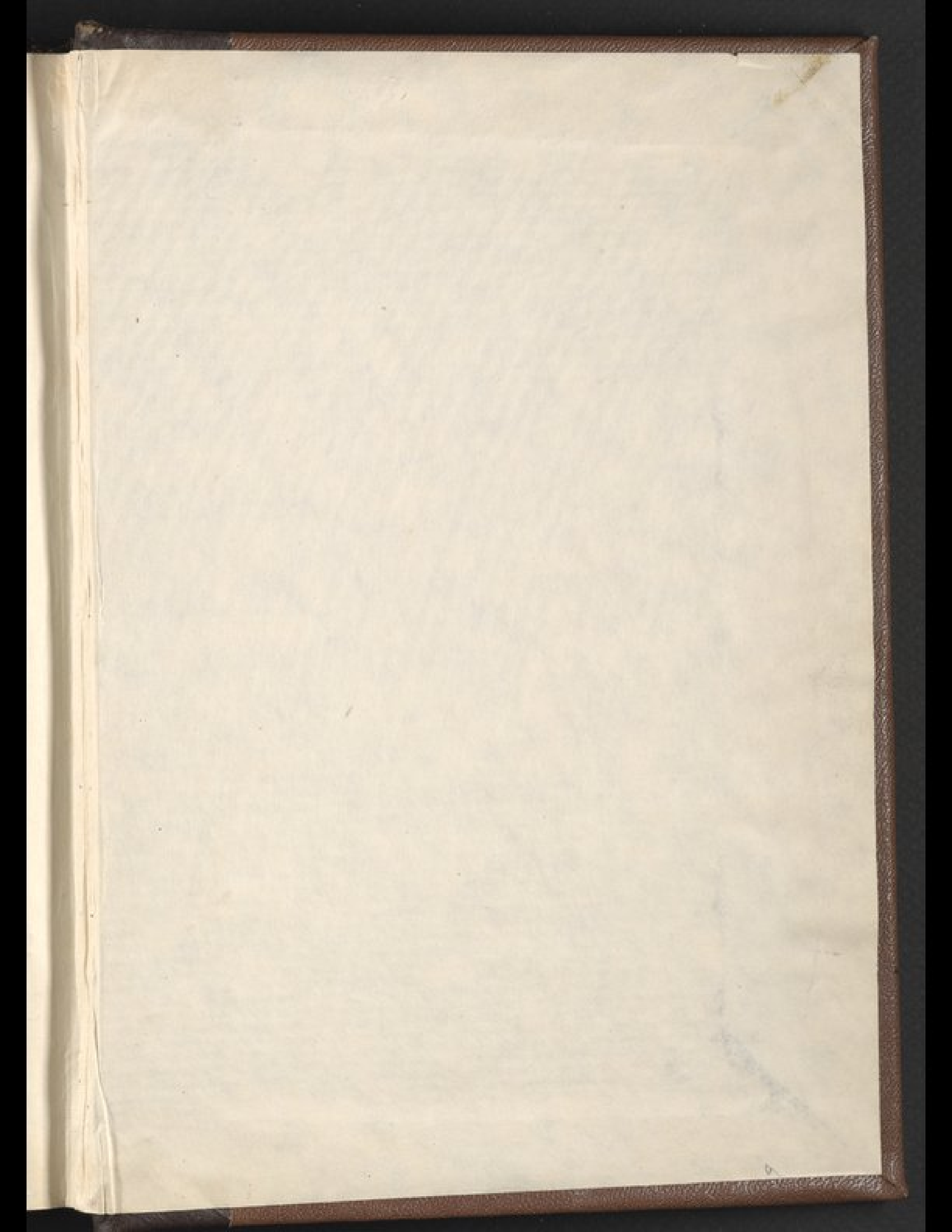




مطبوعات مديرية الآثار العامة في سورية

مشاهد دمشق الأثرية

صور من الوطن الخالد تقدمها مديرية الآثار العامة الى عرب ماوراء البحار

تأليف

الدكتور
سليم عادل عبد الحق
مدير الآثار العام

الاستاذ
خالد معاذ
الخبير الفني في مديرية الآثار العامة

١٣٦٩ هـ — مطبعة الترقي بدمشق — ١٩٥٠ م

مطبوعات مديرية الآثار العامة في سورية

مشاهد دمشق الأثرية

صور من الوطن الخالد تقدمها مديرية الآثار العامة الى عرب ماوراء البحار

تأليف

الدكتور
سليم عادل عبد الحق
مدير الآثار العام

الأستاذ
خالد معاذ
الخبير الفني في مديرية الآثار العامة

١٣٦٩ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥٠ م

دِمشق قبل الفتح العَربي

لعبت دمشق دوراً كبيراً في تاريخ الشرق القديم ، قبل أن تصبح عاصمة العالم العربي في زمن الامويين . وكانت نشأتها في غوطتها الخصبة ، على أيدي سكانها الاول ، الذين استعمروا أراضيها ، ونظموا سقايتها ، منذ عصور الالف الثالثة قبل المسيح . فهي إذن من أقدم مدن الدنيا قاطبة .

وكانت في بادىء أمرها مدينة صغيرة زراعية ، لا تزيد أهميتها عن اهمية قرية من قراها الاثنتين والاربعين الحالية المتوزعة حولها ، في المنطقة التي يخصبها نهر بردى وفروعه . غير ان موقعها هذا بالقرب من جبل قاسيون حيث تلتقي الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الرافدين ومصر وشبه جزيرة العرب ، بالطرق الموصلة إلى المناطق الساحلية ، ساعدها على ان تصبح مدينة تجارية مهمة . كما ان حاصلاتها الزراعية والبضائع التي حملتها التجارة ، ساهمت في جعلها مدينة صناعية تغذي بمنتجاتها مناطق الداخل والساحل .

وليس لدينا وبالأسف من الوثائق التاريخية إلا نذر يسير ؛ لايكفي لايضاح اعمال ملوكها الآراميين ، الذين جعلوا منها عاصمة لاكبر مملكة آرامية في سورية خلال النصف الثاني من الالف الثانية قبل الميلاد . ولم يصل إلينا عن اسلاف عبدي عاشرتا وآزيرو اللذين تذكرهما النصوص المصرية ، وعن خلفائهما إلا اخبار قليلة لا تنفع ظمأنا ، ولا تلقي إلا نوراً باهتاً على طفولتها العجيبة .

ومهما يكن فقد زاد في اهميتها عامل ديني هام . وهو تشييد معبد الاله السوري القديم (حدد) ، رب الامطار والصواعق والجبال العالية ، في وسطها . وحدث ان ذاعت شهرة هذا المعبد في اول الالف الاولى قبل الميلاد ، واصبح يعد من اعظم المعابد السورية الوثنية آنئذ .

ومرت العصور . وبعد ان كانت دمشق تابعة اسمياً للفراعنة ، استولى عليها الآشوريون والبابليون والفرس ، وضموها الى امبراطورياتهم الواسعة ، التي كانت تنشأ وتمتد كأمواج البحر المتعاقبة ، على بقاع واسعة من الشرق الادنى . حتى حانت سنة ٣٣٣ قبل الميلاد . وهزم الاسكندر المكدوني ، ملك الملوك ، وهدم امبراطوريته الاخمينية الفارسية . فانتهى مصيرها إليه ، وغدت مدينة تابعة الى دولته المكدونية . ولما مات انتشرت فيها المدنية الهيلينية ، وقام يتنازع عليها وعلى سورية الوسطى الملوك السلوقيون والملوك البطالسة .

وكان العرب في القرن الاول قبل الميلاد يعيشون في تخوم سورية والعراق ومنهم الانباط والتدمريون ، ويحلمون منذ ذلك الوقت بالاستيلاء على دمشق وجعلها عاصمتهم . وقد تحقق حلمهم هذا لاول مرة في زمن الحارث الثالث ملك الانباط الذي استولى عليها سنة (٨٥ ق . م) . واقام عليها السيادة العربية مدة قليلة من الزمن . غير ان العرب لم يكونوا بعد قد حققوا وحدتهم ، وانشأوا مثلهم العليا واعدوا العدة لفتح العالم . لهذا فان توسعهم هذا لم يدم طويلا ، واضطروا الى التراجع . ثم اقبل القائد الروماني المشهور (بومبه) ، ومعه جيشه الكبير الذي ارسل لقتال ميتريدات ملك (البون) ، وتنفيذ برنامج روما الاستعماري في الشرق . فاستولى على سورية الشمالية ودخل مدينة دمشق سنة (٦٤ ق . م) وفرض عليها سيادة قومه . فارتبط مصير بلاد الشام بمصير الرومان منذ ذلك الوقت الى عدة قرون . ونامت فكرة دمشق عاصمة العروبة طويلا قبل ان تستيقظ بشدة ، وتتحقق بقوة سنة ٦٣٦ ميلادية .

وكان من أثر هذا النظام السياسي الجديد ان اصبحت دمشق تابعة لروما البعيدة . غير ان توقف الحروب بين الامراء السوريين ، وانتشار السلام الروماني ساعدا على ازدهار التجارة السورية ، وانصراف هم السكان الى الفاعلية الاقتصادية الدولية ، التي كانت تصرف اسبابها خاصة على شواطىء البحر الابيض المتوسط . اما المدنية الدمشقية الآرامية الهلنستية فانها لم تكن دون مدنية الفاتحين . لهذا فانها ظلت تعيش وتتطور . ولم تتأثر من الحضارة الرومانية إلا ببعض النواحي . وقد تحول معبد (حدد) الى معبد للاله (جوبيتر الدمشقي) ، وحظي المعبد الجديد

بشهرة كبيرة تعادل شهرة المعبد القديم . فنالت دمشق من ذلك لقب (دمشق الجميلة والمقدسة) . وفي زمن الامبراطور هادريان اصبحت تعد (حاضرة) من حواضر الامبراطورية الرومانية . وفي زمن (اسكندر سيفير) اطلق عليها لقب (مستعمرة رومانية) . وتتابع تطورها العمراني الذي ابتدأ منذ عهد السلوقيين حسب القواعد العمرانية الهلنستية بصورة منطيقة . فنظمت أرضها حسب تخطيطات رقعة الشطرنج ، واصبح لها شوارع منتظمة متعامدة تتقاطع بزوايا قائمة . وقامت في جوانبها منشآت ضخمة . اشهرها : السور ، والقناة ، والاروقة على طرفي بعض الشوارع ، التي منها الشارع المستقيم الخ . . .

ولقد لعبت دمشق أيضاً في نشوء المدنية المسيحية دوراً كبيراً . واشتهرت بأن القديس بولس قد تنصر بصورة عجيبة فيها ، وأنه هرب متدلياً من سورها الشرقي في سلة تخلصاً من شر الجالية اليهودية التي كانت تقطنها . ويقال إن القديس حنانيا كان أول أساقفتها . ولما انتصرت المسيحية نشأت فيها كنائس متعددة شأن القدس وبيت لحم وانطاكية وبقية المدن السورية . وفي سنة (٣٧٩ م) بنى الامبراطور تيودوز فيها كنيسة القديس يوحنا المعمدان مكان معبد جوبيتر ، وجعل لها ثلاثة أبهاء طولانية . كما ان ابنه الامبراطور أركاديوس ، كما يفترض بعض المؤرخين ، جعل لها بهواً مستعرضاً فيما بعد . ولا يخفى أن سورية اشتهرت بنقاهـا في كل العصور ، لذلك فانها ساهمت مساهمة فعالة في نشوء حركة الرهبنة ، وانصراف رجال الدين المسيحي الى الزهـد والتقشف وبناء الأديرة خلال القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية ، وخاصة في الشمال والجنوب منها . ويذكر لنا ابن عساكر وغيره من المؤرخين العرب اسماء خمسة عشر ديراً ، كانت مبعثرة في غوطة دمشق . وأخيراً فان هذه المدينة كانت موطناً لبعض مشاهير آباء الكنيسة ، أمثال : (سوفرون) ويوحنا الدمشقي ، وانداروس الكريتي الذين قـدموا الى الافكار المسيحية كثيراً من موادها الثمينة .

(اللوح ١)

لوح حجري منحوت من معبد حدد

لم يبق ما يدل على مدينة دمشق الآرامية التي كانت تمتد حول معبدها وحول رابية (يظن أنها تل السماكة الحالي) ، إلا هذا الحجر المنحوت . وقد اكتشفته مديرية الآثار العامة أثناء أعمال الاصلاح والترميم ، التي قامت بها في جامع بني أمية . إذ أنه كان بين أحجار الجدار الشمالي (الزاوية الشمالية الشرقية) وذلك في الصف الثالث فوق الأساسات الرومانية الاغريقية . وهو من الحجر البركاني . ويبلغ طوله (٨٠ س م) ، وعرضه (٧٠ س م) . ويختلف سمكه بين (٣١ س م – ٥١) ، ويمثل أبا الهول وهو يمشي .

وصفاته الفينيقية ظاهرة . فهو متوج بتاج مزدوج مسطح ، وله ذقن طويلة ، وأجنحة مزدوجة ، بعضها فوق بعض ، وصدارة بين قائمتيه الاماميتين المفترقتين . ويرجع عهده على وجه التقريب الى القرن التاسع قبل الميلاد . ويظن أن حزاقيل ملك دمشق أراد أن يبني معبد (حدد) ويزينه ، فاستحضر لذلك فنانين فينيقيين ، كما فعل الملك سليمان في القدس .

(هذا اللوح المنحوت محفوظ في متحف دمشق) .



(اللوح ٢)

مخطّطُ دِمَشق في العَهْدِ الرّومَاني

يشاهد في الصفحة التالية آن مخطط دمشق في العهد الروماني كان منتظماً جداً . اذ أن السور المستطيل كان يحوي مساحة من الأرض تقدر بمائة هكتار . وهي مقسومة إلى جزيرات مستطيلة تبلغ أبعاد كل منها ١٠٠ م × ٤٥ م ، ومفصولة عن بعضها بشوارع تتجه من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب . ويلاحظ أنه كان يوجد قوس كبير وقصر لحاكم المدينة ومسرح على طول الشارع الكبير . كما أن الاغورا (ساحة المدينة العامة) كانت تتصل بمعبد جو بيتر بشارع كبير آخر، على طرفيه نظمت الأروقة المحمولة على الأعمدة .

ويظهر أن هذا المخطط الذي يشبه تخطيطات المدن السورية التى بنيت في العهد الهلنستي ، كاللاذقية وانطاكية، وحلب في عدة نقاط ، بدأ يتحقق على هذا الشكل منذ العصر الهلنستي وخاصة مايتعلق بالسور والاغورا والمعبد.

DIRECTION GENERALE
DES
ANTIQUITEES
PLAN RESTITUE DE DAMAS
A L'EPOQUE ROMAINE

مديرية الآثار العامة
مخطط تقريبي
لمدينة دمشق في زمن الرومان

1 TEMPLE DE JUPUTER DAMASCENIEN
2 L'AGORA
3 L'AVENUE DROITE
4 LA PORTE ORIENTALE
5 LE PALAIS DU GOUVERNEUR
6 LE THEATRE

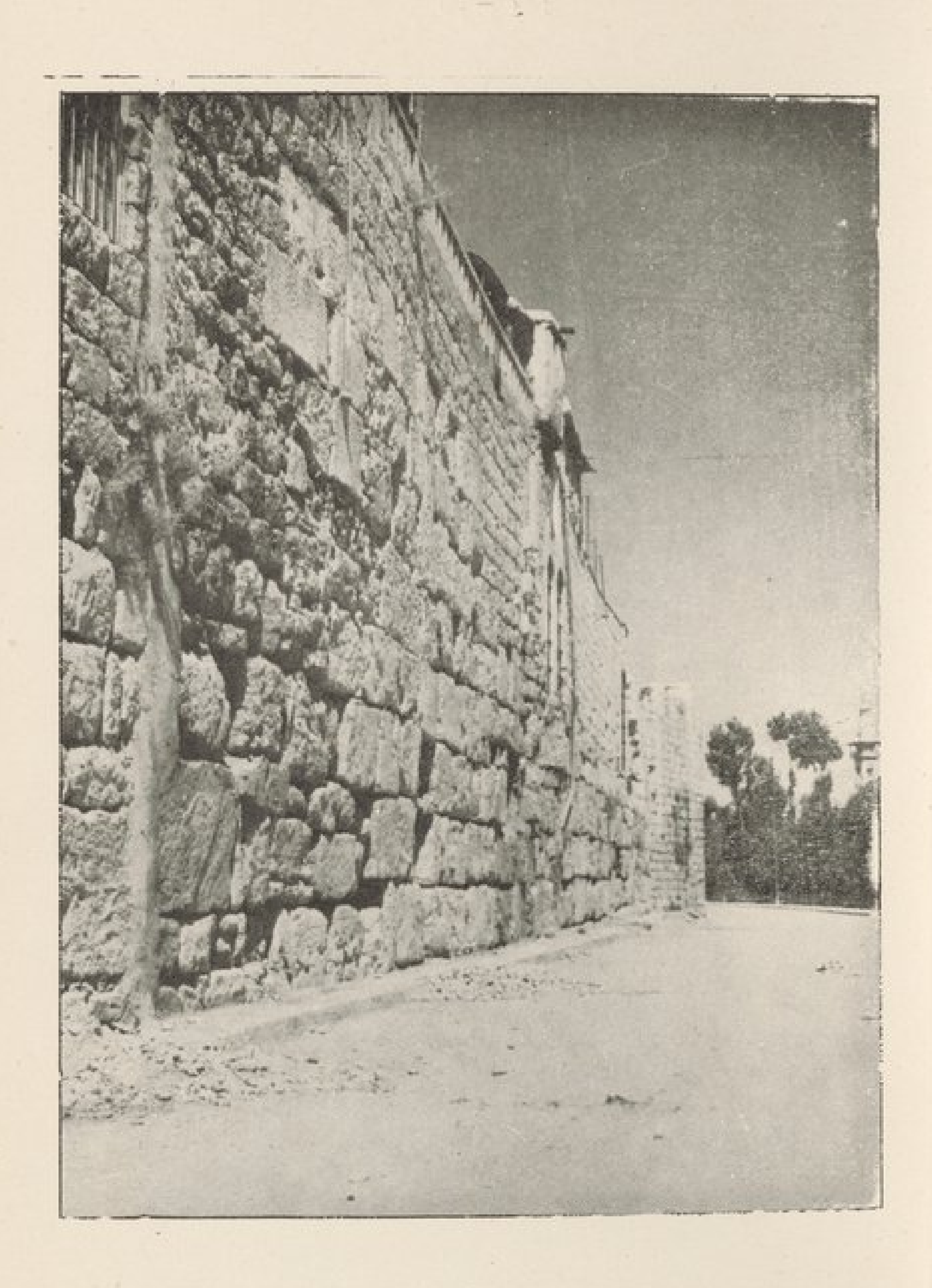
١ معبد جوبيتر الدمشقي
٢ ساحة المدينة العامة
٣ الشارع الطويل
٤ الباب الشرقي
٥ قصر حاكم المدينة
٦ المسرح

N

(اللوح ٣)

السور الروماني

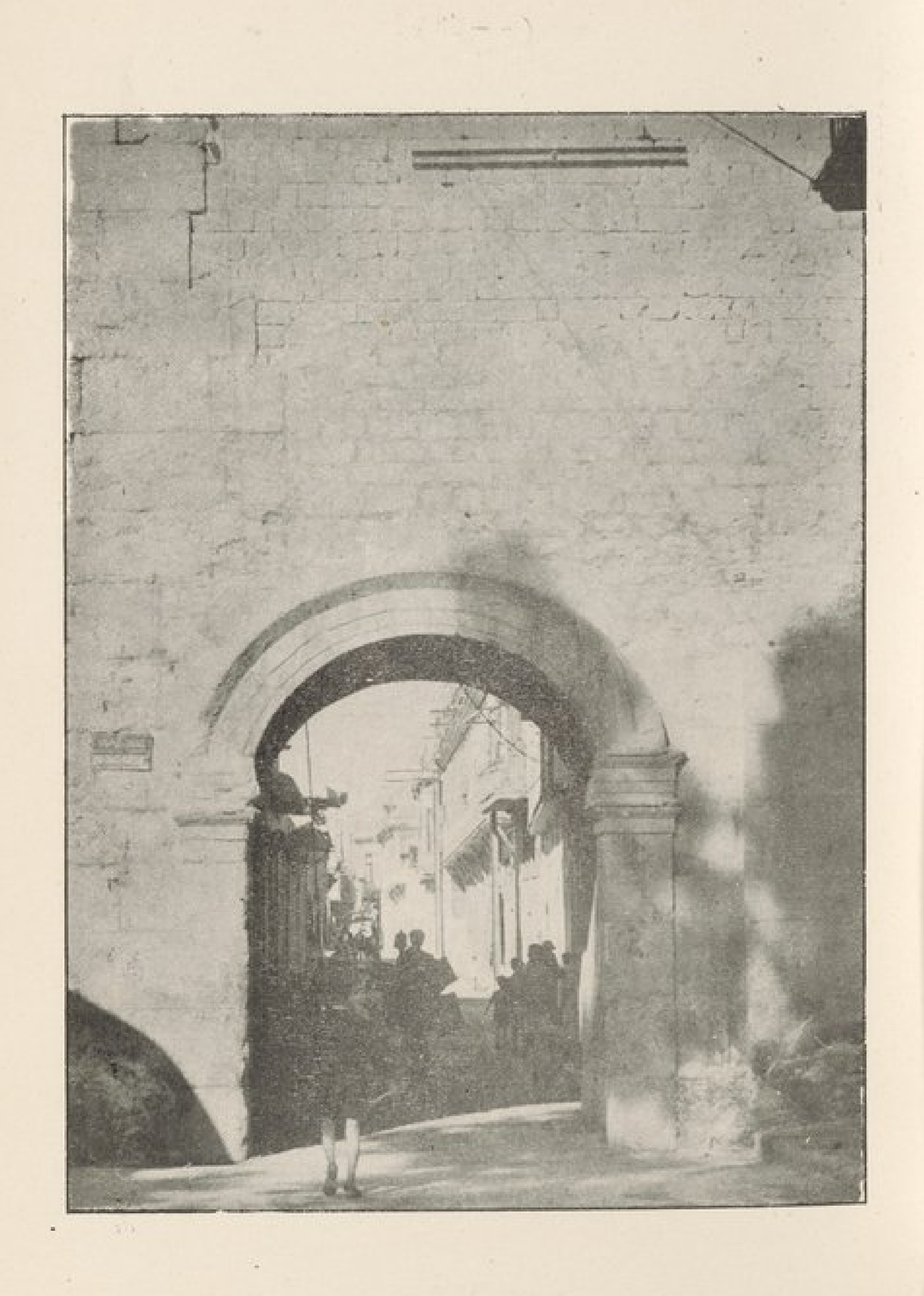
كان سور دمشق الروماني يمتد على خط مستقيم محدثا شكلاً مستطيلاً منتظماً طوله (١٣٤٠ متراً) ، وعرضه (٧٥٠ متراً) تقريباً . وقد رمم عدة مرات في الأزمنة التالية . وانحرف عن شكله السابق ، إلا في جزء من جهته الشرقية وجزء من جهته الشمالية حيث يحاذي نهر عقربا كما يرى في اللوح (٣). وقد اعيد بناء هذا الجزء خلال العصر الوسيط ، في قسمه السفلي من أحجار قديمة ، واتبع الاتجاه القديم الذي كان له سابقاً .



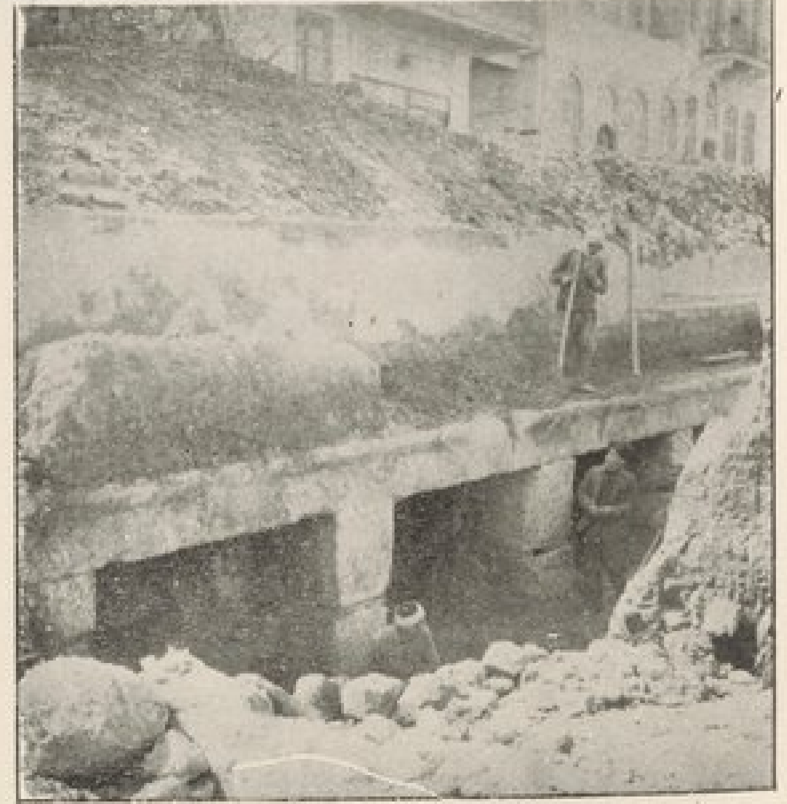
(اللوح ٤)

الباب الشرقي

هو الباب الوحيد الذي وصلنا من أبواب دمشق السبعة في العهد الروماني وكان الناس ينفذون منه إلى شارع المدينة المستقيم الذي يمتد من شرقها إلى غربها . وكانت فتحته الوسطى تقابل منتصف الطريق . وقد سدت هذه الفتحة والفتحة الجنوبية في القرون الوسطى . ولم يبق إلا الفتحة الشمالية ، التي تعلوها صفوف من أحجار السور العربي . وسوية أرض هذا الباب أعلى من سويته القديمة . ويرجع عهده إلى آخر القرن الثاني أو أول القرن الثالث الميلادي .







(اللوح ٥)

القناة الرّومانيّة

بنيت هذه القناة في العصر الروماني ، لما اتسعت مدينة دمشق . وهي ما تزال تنقل الى قسم كبير من دور ومنشآت المدينة القديمة جدولاً من الماء ينفصل عن نهر بردى قبل أن يدخل دمشق . وقد أظهرت أعمال بناء مطبعة الحكومة منذ سنتين قسماً من هذه القناة . ويرى هذا القسم في الصورتين من اللوح (٥) . وهو متألف من مجرى حجري ، يرتكز على دعائم مستطيلة تمتد على مسافات متساوية .

(اللوح ٦)

الشارع المستقيم

كان هذا الشارع يجتاز المدينة من الشرق الى الغرب ، وعرضه (٢٥،٩٢) متراً ، منها (١٣،٦٠) متراً ، عرض (السكة) و (٦،١٢ أمتار) عرض كل من الرواقين المستورين ، اللذين كانا بحدائه . وقد ظهرت عدة آثار منها قواعد وجذوع أعمدة مختلفة دلت على اتجاهه القديم .

وأبانت أعمال مديرية الآثار العامة ، منذ سنتين على بعد ٥١٨ متراً من الباب الشرقي ، الطرف الشمالي لقوس روماني ، يتفق مع الرواق الشمالي من الشارع المذكور وترى دعامته اليمنى على الصورة الأولى من اللوح (٦) . وهي بسيطة وذات قاعدة مخددة . كما أنها أصغر من دعامته اليسرى التي تتألف من كتلة ضخمة من الأحجار المنحوتة ، المنظمة على شكل تأخر سطوحه الواحد عن الاخرى ، وتضم نصف عمود مخدد في كل وجه من وجهيها . وهذه الدعامة هي الركيزة اليمنى للقسم المتوسط من القوس الروماني الأصلي الذي يقابل (سكة) الشارع .



(اللوح ٧)

معبد جوبيتر الدمشقي

أنشيء معبد (جوبيتر المحسن الكبير الدمشقي) في موضع معبد (حدد) القديم ، في أول القرن الثالث بعد الميلاد وتم بناؤه في النصف الثاني من هذا القرن وكان يتصف بكل صفات المعابد السورية الرومانية . ويتألف خاصة من سور خارجي ، ابعاده (٣٨٠ م × ٣١٠ م) ، ويمتد على شكل شبه منحرف . وكان يحيط بالحرم المقدس . وله مدخلان واسعان في شرقه وغربه . ويؤدي إليهما شارعان كبيران من شوارع المدينة ، بنيت أروقة على جانبيهما . وقد انشئت على الأطراف الدخلية لهذا السور سلسلة من الحوانيت التي كانت تجري فيها الأعمال التجارية . وفي داخل السور الخارجي سور داخلي مستطيل الشكل ، أبعاده (١٥٥ م × ١٠٠ م) . وهو مبني من الأحجار الضخمة ، ووجوهه الخارجية مزينة بركائز . وجعلت اربعة آبراج على زواياه . وقد استخدم تخطيط هذا السور في بناء المسجد الأموي . وكان له في شرقه مدخل ضخم . وأخيراً فان بناء مكان العبادة المسمى (سيللا) كان يقع في منتصف السور الداخلي . وكان يحوي تمثال جوبيتر والكنوز المقدمة إليه .

ويرينا اللوح (٧) منظراً جانبياً لما بقي من المدخل الشرقي للسور الداخلي (بعد أن أصلح) ، كما يرينا الابواب الثلاثة للجامع الحالي التي هي أبواب المعبد الروماني .



(اللوح ٨)

الجبهة الغربية

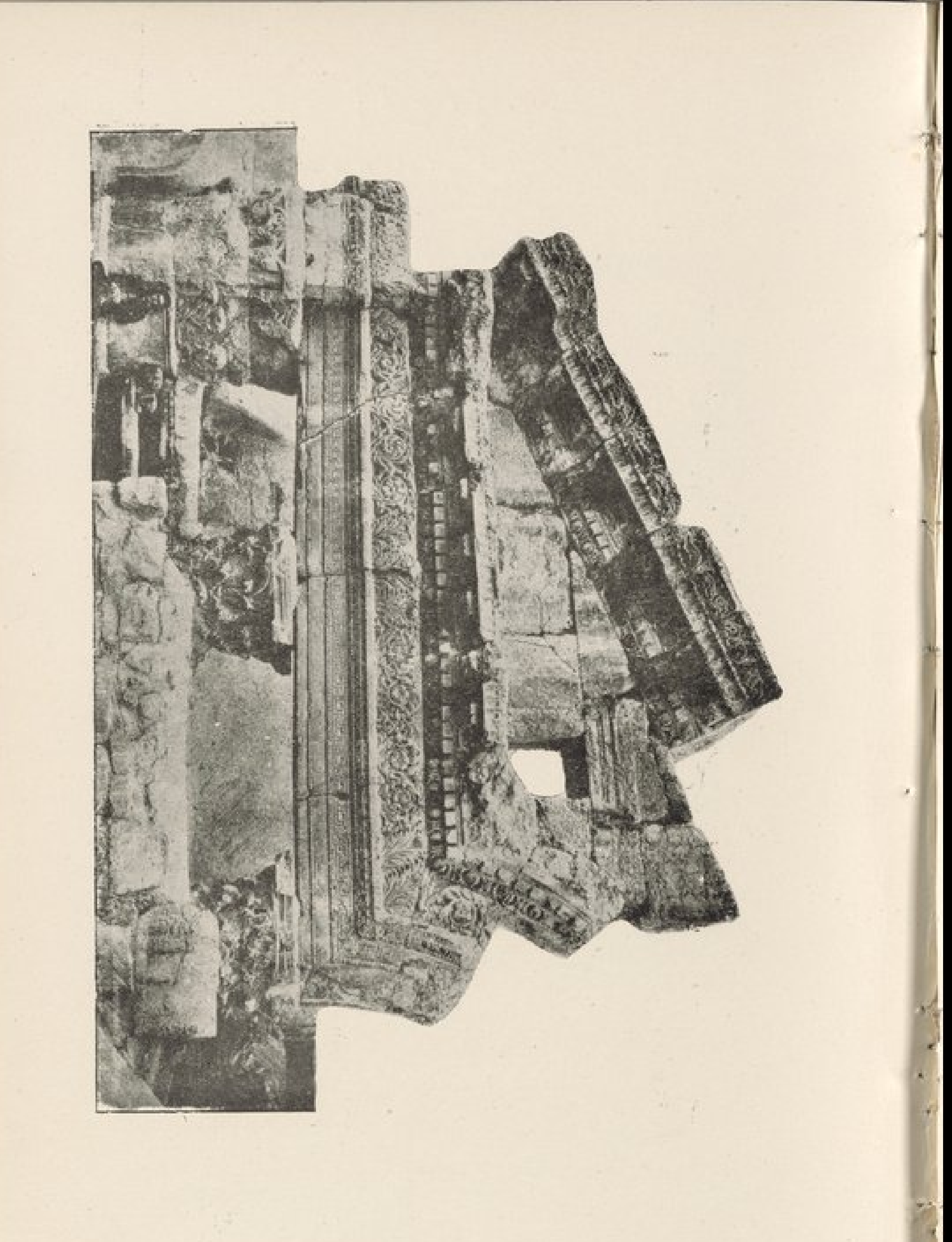
ظن الباحثون الأثريون أن هذه الجبهة قوس للظفر في بادىء الأمر ، ثم حسبوا أنها جزء من مدخل المعبد الغربي ، وأخيراً قالوا عنها أنها شكل خاص من أشكال داخل سور المعبد الثاني الغربي . ومهما يكن فهي عنصر هام مما تبقى من سور معبد جويتر . وشكلها مثلثي ، وهي ترتكز على دعامتين ضخمتين وعلى أربعة أعمدة كورنتية ، ارتفاع كل منها (١١،١٠ م) .

ويلاحظ أن مركز الجبهة يتألف من قوس مستدير ، وهذا الوضع نادر في الأبنية الرومانية ، وهو لا ريب ابتكار دمشقي .

أما زخارف قسمها السفلى فغنية جداً ، وتتألف من عدة صفوف متعاقبة منحوتة . منها صفان من الزخارف البيضوية ، يحيطان بصف من الزخارف النباتية والزهرات .

وفي أسفلها صف آخر من الزخارف المتعرجة ، وصف من الزخارف ذات الأسنان في الاعلى ، وفوقها صف من المحاريب الصغيرة ، مرتكزاً على صناديق حجرية .

ولا تقل زخارف القسم العلوي من الجبهة عن زخارف قسمها السفلي ؛ وتتألف من صفوف تماثل الصفوف التي وصفناها مع شيء من الاختلاف .

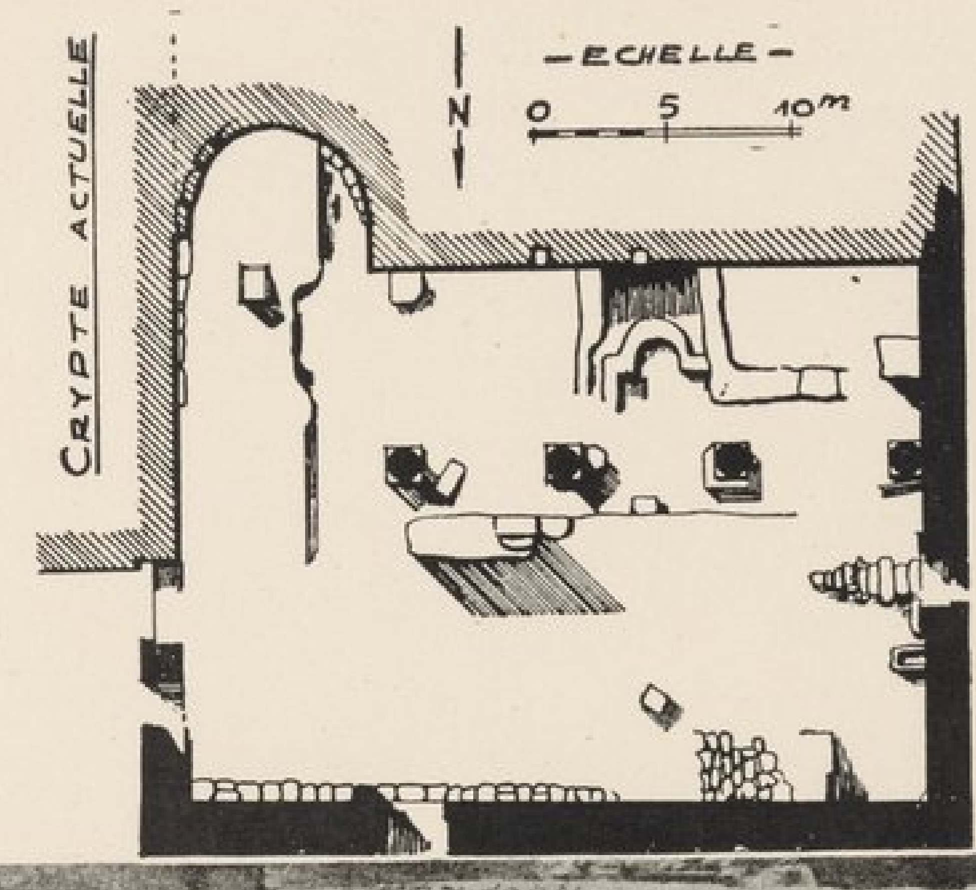


(اللوح ٩)

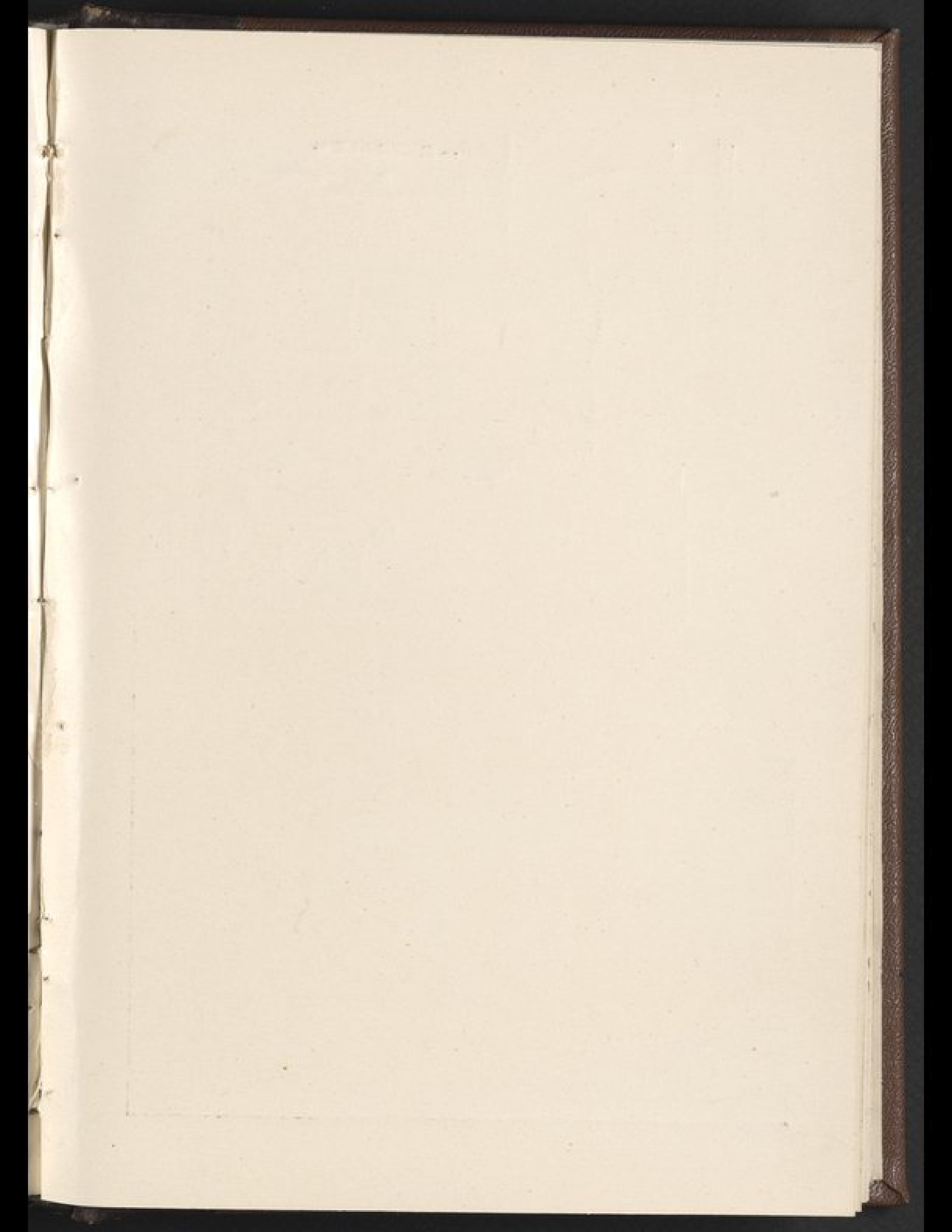
كنيسة القدّيس حنانيا

منذ عهد تسامح الامبراطور قسطنطين بدأت البلاد السورية ببناء عدد من الكنائس الضخمة الجميلة . وأشهرها كنيسة القيامة في القدس ، وكنيسة الصعود على جبل الزيتون وكنيسة الميلاد ، في بيت لحم والكنيسة الذهبية في انطاكية . وقد تبعتها كنائس عديدة خلال القرون الرابع والخامس والسادس . وأشهرها ، دير القديس سمعان ، وكنيسة قلب اللوزة ، وكنيسة القديسة هيلانة في حلب . وكان لها شأن كبير في تاريخ العمارة الدينية السورية ، الذي بلغ حداً عظيما من الكمال .

وكان يوجد عدد من الكنائس فى دمشق خلال العهد البيزنطي . ولكنه لم يعثر فيها الا على بعض أطلال كنيسة القديس حنانيا ، بين الباب الشرقي وباب توما جوار المكان الذي تعال فيه لانه كان بيت القديس حنانيا . وقد أطلق عليها العرب اسم (الكنيسة المصلبة) . وظهر أنها بنيت مكان معبد وثني قديم ، وان بناءها جدد في زمن الوليد بن عبد الملك ، وأن صلاح الدين الايوبي بنى مكانها مسجداً .


CRYPTE ACTUELLE
N
-ECHELLE-
0
5
10m





دِمشق في زَمنِ الأمويّين وَالعبّاسيّين

ابتدأ العرب بالهجرة الى بلاد الشام قبل ظهور الاسلام بمدة طويلة . وكانوا يقصدونها لخصب أراضيها ووفرة حاصلاتها . ومن القبائل التي هاجرت إليها الغساسنة واليمنيون والقيسيون الذين أقاموا في مناطق متعددة منها في تواريخ مختلفة ، وتأثروا من الحضارة البيزنطية التي كانت منتشرة فيها . وكذلك كان ينتجعها بقوافلهم تجار شبه جزيرة العرب الذين كانوا متحكمين في تجارة الشرق الاقصى . فيزورون دمشق ، ويتصلون بأهلها ، ويصادقونهم ، ويعجبون ببساتينهم الغناء . ثم يعودون إلى بلادهم وهم يحملون في خيالاتهم عن غنى دمشق وخصبها صوراً رائعة ، سبكها شعراؤهم في آيات بينات من الأدب الخالد .

ولما ظهر الاسلام تدفق أعراب الجزيرة إلى بلاد الشرق الأدنى ، وهاجموا الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، اللتين كانتا منصرفتين إلى صراع مستديم نشب بينهما منذ مدة طويلة . وجعلوا يتوسعون على حسابهما . ولم تمض مدة قليلة حتى حدث انقلاب تاريخي كبير في هذه البقعة من الشرق . وفتح فصل جديد في التاريخ العالمي ، وعبدت الطريق أمام المجد العربي الناشئ . وقد هزم خالد بن الوليد تيودور قائد هرقل ملك الروم في موقعة اليرموك الحاسمة . وزحف على دمشق وحاصرها ، هو وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان . وسقطت المدينة في سنة (١٤ ﻫ = ٦٣٦ م) . وكان سقوطها فاتحة لسقوط بقية المدن السورية الواحدة بعد الاخرى .

وترك العرب السوريون المسيحيون خلال ذلك نصرة البيزنطيين . وانضموا مدفوعين ، بعاطفة التعاضد العرقية ، الى العرب المسلمين ، الذين أخذت جيوشهم المظفرة تحتل أقطاراً كثيرة واسعة في القارات الثلاث آسيا وافريقيا وأوربا . وكان توسع هذا العرق الشاب القوي في العالم القديم معجباً حقا . إذ أن البحر الابيض المتوسط غدا تقريباً ، بحيرة عربية خلال مدة قليلة من الزمن . وأصبح طرفا الهلال ، كما قال أحد مشاهير مؤرخي الغرب ، في (كاشغر) من الصين شرقا ، وفي (بواتيه) من فرنسا غربا .

ولقد لعبت دمشق في ولادة هذا العالم الجديد دوراً كبيراً . إذ أنها أصبحت عاصمة لسلالة الامويين منذ سنة (٤١ هـ = ٦٦٠ م) . وأضحت المركز السياسي والديني والثقافي لأمبراطوريتهم الواسعة . وجعل العرب يتقاطرون إليها من كل حدب وصوب ، ويحلون في الدور التي فارقها البيزنطيون لغير رجعة ، ويأتلفون مع سكانها الذين أسلموا ، أو الذين ظلوا على نصرانيتهم . وعدّهم هؤلاء كمنقذين لما كان ينتابهم خلال الحكم البيزنطي من جور وتعسف في أموالهم وعقائدهم الدينية ، التي كانت لا تتفق مع عقائد الكنيسة البيزنطية الرسمية . وراحوا يساهمون وإياهم في إيجاد المؤسسات اللازمة لتأمين قوة الامبراطورية الاموية وتماسكها . وكان معاوية وهو أحد أفذاذ العباقرة السياسيين العرب في كل الأزمان ، المؤسس الأول لمجد دمشق . وقد نشر التسامح الديني ووفق بين سكانها الجدد والقدماء وبوأ عدداً كبيراً من هؤلاء مناصب عالية في الادارة والمالية ، ومنهم يوحنا الدمشقي الذي خدمه كما خدم عدة خلفاء بعده باخلاص ونشاط . وهكذا نشأ توازن مكين في المجتمع العربي ، أضيف الى قوة الامبراطورية ورخائها الاقتصادي ، الناشىء عن وضع الامويين أيديهم على اقتصاديات البحر المتوسط . وهذا ما هيأ المجال لولادة الفن العربي في دمشق ، وتغيير جميع الاشكال الفنية ، التي عرفتها المدنيات السابقة بأشكال جديدة لها نضارة الشباب وجماله .

وقد استوفى فن العمران العربي في دمشق جميع الصفات التي اختص بها فيما بعد . ومنها جعل المياه غزيرة في المدينة ، والاكثار من حدائقها ، والعمل على تقسيم أسواقها حسب اختصاص أصحاب المهن ، ويلاحظ أن هذه الصفة الاخيرة لم تظهر إلا فيما بعد . أما الصفتان الاولى والثانية فقد تبدتا بوضوح تام في زمن الأمويين .

ولا يخفى أن هذا العصر قد ورث من العصور القديمة جهازاً كاملاً لسقاية المدينة وري غوطتها . فعمل الخلفاء الامويين على إتمامه وإكماله . ومنهم يزيد الاول بن معاوية الذي شق في كنف الجبل نهراً ، حمل المياه الى الاراضي العالية . ووسع مساحات الحقول المزروعة ، وساعد على إيجاد قرى جديدة . وعملت الاجيال بعده في توزيع المياه على كل أحياء المدينة وبيوتها وقصورها وجوامعها . حتى

أصبح الماء يشاهد في كل مكان من دمشق . وقد قال أحد الغربيين الذين زاروا سورية ، وكتبوا عنها منذ مدة قريبة ، إن دمشق ظمأى وهي تنقع ظمأها فتضع شفتيها على مياه بردى الواطئة ، فتعب منها وتنهل بشغف ولذة . ويلاحظ أن الفن العمراني أفاد من استخدام الماء أكبر فائدة ، ووائم بينه وبين فن العمارات المبنية بالاحجار المنحوتة الذي اشتهرت به دمشق منذ أقدم الازمنة . وجمع تأثيراتها حتى صار هذا الانسجام أكثر صفات دمشق العمرانية لصوقاً بها .

ونتج عن هذه الجهود الاكثار من بساتين دمشق الضاحكة وحدائقها ، في كل مكان ، واتساع الحقول الخضراء حولها . وغدت هذه كما يقول فيها ابن جبير تحيط بها كما يحيط الكأس الزهرة ، والهالة القمر . انها شامة الجمال في الدنيا وجنة الارض في أرضه . وتنقل إلينا ألواح الفسيفساء في المسجد الاموي الذي يرجع عهد صنعها الى هذا الزمن صوراً رائعة عن تنظيم عمارات المدينة ضمن الحقول التي يحيط بها الماء من كل جهة .

ويظهر أن رقعة المدينة وتقسيماتها الى ساحات ، وشوارع منتظمة ، وجزيرات مستطيلة كانت في العصر البيزنطي كما كانت تماماً في العصر الروماني . وقد عمل الامويون بدورهم على ايضاح مفاهيمهم الخاصة في تنظيم العمارات التي يجب ان تضمها المدينة . فأوجدوا فيها منشئات جديدة . وبدأ فن العمارة الاسلامية بداية قوية ، وأصبح فيها فناً أمبراطوريا رائعاً . ونشأت فيها مدرسة فنية دعاها المؤرخون بحق : (المدرسة السورية - المصرية) ، التي امتدت تعاليمها إلى بقيـة البلاد العربية ، وتركت آثاراً مختلفة فيها . ولايخفى أن فن العمارة خادم للدين منذ أقدم الازمنة ، وأنه يسعى دوماً لتحقيق مايعتلج في نفوس المتعبدين من رغبات ، وأنه يتطور في الابنية التي يحدثها حسب حياة المجتمع ، وحسب الطباع التي تنشرها كل مدنية من المدنيات . وقد أوجدت الديانة الاسلامية نموذج المسجد لـكي يكون مـكانا للصلاة ، ومركزاً لحياة المسلمين العامة ، حيث يتعرف فيه الخليفة على أفراد رعيته ، ويقام العدل بين الناس ، ويحفظ مال المسلمين .

واستخدم المسلمون في أول حياة المجتمع الاسلامي بيت النبي (صلعم) مسجداً تقام فيه الصلاة . وبنى عبد الملك بن مروان مسجدي عمر والاقصى في مدينة

القدس . وتالف مع الزمن منهاج منطقي للأقسام المختلفة التي يجب أن يحويها المسجد .

ثم قضت الضرورة أن يبنى مسجد كبير يليق بعظمة الامويين في دمشق . وقام الوليد بن عبد الملك لتحقيق هذا المشروع بحماس فائق . وقد أرضى مسيحي دمشق بالتنازل للمسلمين ، عن قسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان الغربي ، الذي بقي في ايديهم ، بعد أن حول قسمها الشرقي إلى مسجد بعد الفتح العربي . وذلك مقابل اربع كنائس منحهم حق العبادة فيها . ويقال إنه كان اول من قام بهدم البناء القديم . فبدأ بذلك اعمال تشييد المسجد التي استمرت نحو عشرة اعوام . وساهم فيها ألوف من العمال المختصين جمعوا من أطراف الولايات العربية . ويحدثنا ابن جبير فيقول إن تكاليف البناء بلغت ، أحد عشر مليوناً ومائتي ألف دينار . كما يقول فيه ياقوت الحموي في معجم البلدان : « إن الوليد انفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين ، وحملت إليه الحسبانات بما انفق عليه على ثمانية عشر بعيراً فأمر باحراقها ، ولم ينظر فيها ، وقال هو شيء اخرجناه لله فلم نتبعه » .

ولما انتصب بناء المسجد في أرض دمشق كان آية الآيات . حتى ان أحد مؤرخي دمشق الغربيين المتاخرين قال فيه : « إنه لم يكن فحسب اعظم آبدة قامت في ارض الاسلام حتى ذلك الوقت ، بل إنه أحد ابتكارات فن البناء العالمي في كل الازمان وفي كل البلاد » . ودهش من مشهده المعجب كل من رآه منذ زمن تشييده حتى عصرنا الحاضر . وقد قال فيه ياقوت ايضاً : « ومن عجائبه انه لو عاش الانسان مائة سنة ، وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فيه كل يوم ما لم يره في سائر الايام من حسن صناعة واختلافها » .

وتكاثرت أيضاً المنشآت المدنية في دمشق . وليس لدينا إلا بعض النصوص التاريخية التي تذكر لنا لمحة عن قصر الخضراء الذي بناه معاوية في جنوب سور المسجد القديم ، وعن القصور التي انشأها سليمان وهشام بني عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز . وكذلك فاننا نجهل كل شيء عن المشافي والملاجىء التي بقيت في دمشق واتمت تنظيماتها العمرانية . ويحدثنا المؤرخون ايضاً على ان الوليد اقام للمنارات في الطرق ، وحفر الآبار ، ونظم العمران وشيد المساجد . فكان بذلك من

مؤسسي فن العمران والبناء العربي ، وخير مثل احتذاه افراد رعيته في بناء منازلهم الخاصة وتجميلها .

* * *

وثار العباسيون سنة (١٣٢ هـ = ٧٤٩ م) ضد الامويين واجتاحوا بلاد الشام، وثلوا عرش أعدائهم ، ودخلوا دمشق وهدموا قصورها ، ونقلوا العاصمة الى العراق . ولا ريب ان المدنية العربية تقدمت تقدماً رائعاً في عهدهم ، إلا أن دمشق لم تعد تتمتع بالمكانة الممتازة التي كانت لها حتى هذا التاريخ .

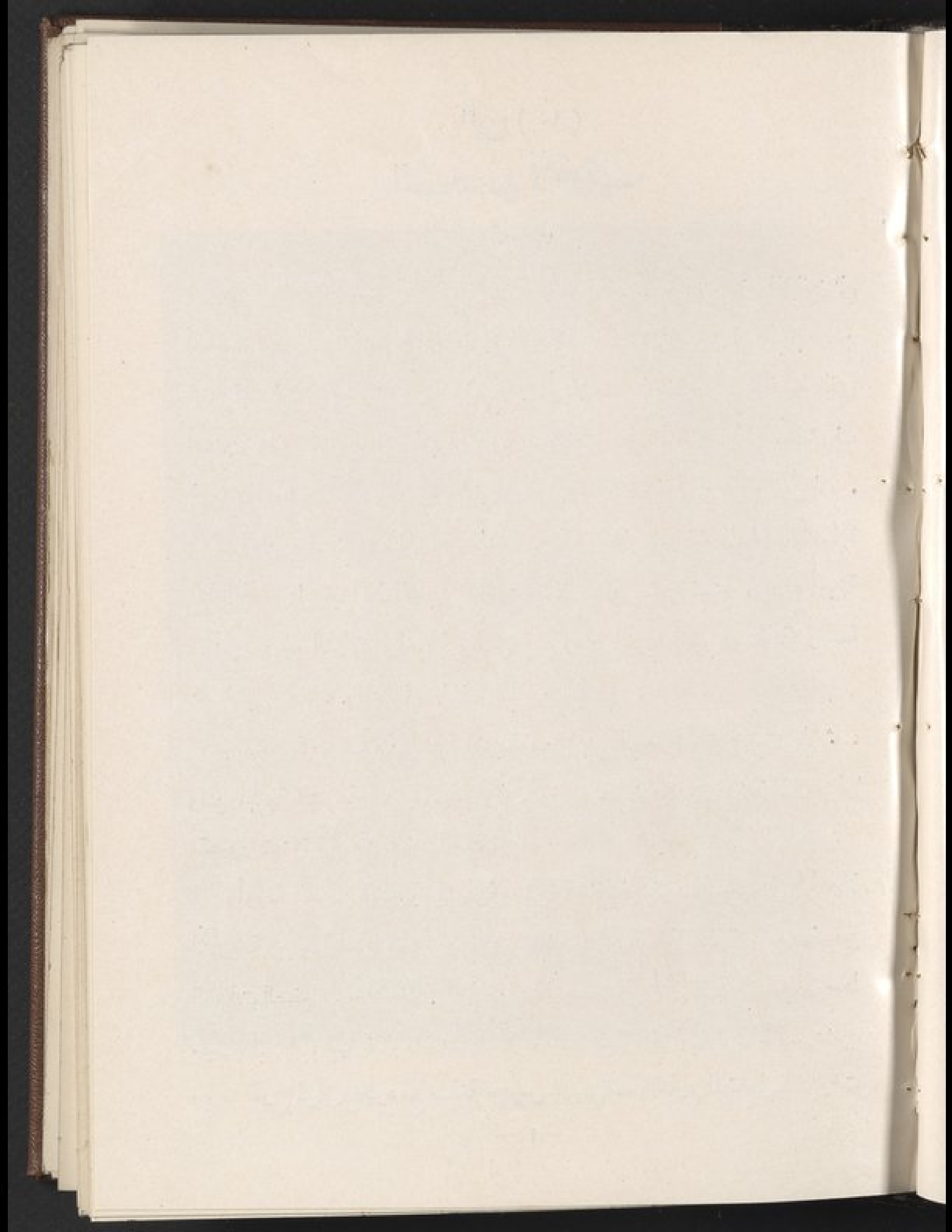
ومع ذلك فان العباسيين لم يتخلوا تماماً عنها . لأنهم أدركوا ما لها من شأن خطير ، كحاضرة من أكبر حواضر دولتهم . فجعلوا يرسلون إليها خيرة ولاتهم . كما ان هارون الرشيد وابنه المأمون كانا يأتيان إليها طلباً للصحة وحسن المنظر . وقد قام الثاني بعدة أعمال عمرانية فيها ، منها أنه أجرى قناة من نهر منين الى دير مران ، وبنى القبة في أعلى جبلها ، وجعلها مرقبا . وشيد قصراً في جنوبها قرب داريا .

ثم عاشت دمشق خلال ثلاثة قرون تحت حكم الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية ، في عهد سداه ولحمته الفوضى واضطراب حبل الامن ، والحروب المستمرة . فنشأ عن ذلك تضعضع تنظيماتها المدنية ، ونشوء الحياة الاقطاعية في حاراتها الملتوية ذات المداخل الضيقة ، التي ظهرت بدلا عن الجزيرات القديمة المستطيلة . وكانت كل حارة من هذه الحارات تشبه قرية ، لها مركز تجاري ، وأعضاء رئيسية كالمسجد والحمام والمقهى . وأخذت الاسواق وما تحويه من دكاكين للتجار والصناع ، تتألف وتجتمع حسب اختصاص كل طبقة منهم ، كما ذكرنا ذلك سابقا . كما شيدت فيها خانات كانت الغاية منها تنظيم تصدير البضائع واستيرادها . وأخيراً نشأت فيها أحياء خارجيـة تتصف بصفات مدنية وقروية على السواء . ومنها حي العقيبة في شمالها وحي الشاغور في جنوبها .

وحلت في هذا العهد على دمشق مصائب كثيرة منها الحريق العظيم الذي حدث في المسجد الاموي سنة (٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م) ، وأتى عليه بكامله ولم يبق منه قائماً سوى جدرانه . ثم رمم في العهد السلجوقي التالي .

ولم تترك لنا هذه العهود الاخيرة من الأبنية الأثرية شيئاً يذكر ، اللهم إلا ضريح فاطمة بنت أحمد بن الحسين ، وتاريخه سنة (٤٣٩ ﻫ = ١٠٤٨ م) . وهو موجود تحت قبة في مقبرة (الباب الصغير) . ويمثل روعة الفن الفاطمي في الكتابة الكوفية المشجرة . إذ يلاحظ أن الأوراق والعروق النباتية تخرج من الحروف كما تبدو الأزهار من الأواني التي وضعت فيها ، ثم تستطيل وتتعرج وتمتد حول الزخارف الخطية البارزة من سطح مستوٍ منحوت بدقة شديدة .

وتبقت أيضاً كتابتان كوفيتان على جسر (ثورا) باسم الامام المستنصر بالله . وأولاهما من سنة (٤٤٢ ﻫ) والثانية من سنة (٤٥٦ ﻫ) .



اللوح (١٠)

المسجد الأموي

الصحن

بني الجامع الاموي كله في زمن الوليد، خلافاً لما يدعيه بعض المؤلفين في أن عهد بعض أقسامه يعود الى ماقبل الاسلام . اذ أنه لم يدخل في المسجد من البناء القديم الا الجدار الخارجي والأبراج. ويلاحظ أن مخططه هو المخطط الذي أنشئت عليه المساجد الاسلامية الاولى . وينص على تنظيم فراغ مكشوف ضمن بناء مشيد . ولاريب أنه مستوحى من دور العرب في زمن ظهور الاسلام . ولاسيما من بيت النبي (صلعم) في المدينة ، الذي كان يقيم فيه المسلمون الصلاة المشتركة. وعلى هذا فان المسجد الأموي يتألف من صحن فسيح ، تحده أروقة من جهاته الشمالية والغربية والشرقية ، ومن الحرم الذي هو قاعة واسعة محمولة على عمد ، وقائمة في طرف الصحن الجنوبي .

ويدخل الزائر اليه من الجبهة الغربية من (باب البريد) وله فتحات ثلاث ، ومن الجبهة الشرقية من باب جيرون . ووراء هذين البابين دهليزان حولهما مقصورات متبقية من البناء القديم .

وأروقة الصحن الغربية والشمالية والشرقية مغطاة بسقوف تستند على الجدران الخارجية من جهة ، وعلى ركائز واعمدة متعاقبة من جهة ثانية . وفوق هذه صف من الطاقات الصغيرة . ويلاحظ ان الرواق الشمالي يستند على ركائز فقط في قسمه المتوسط حيث يقابل باب العمارة ، وما ذلك إلا لأنه أعيد انشاؤه في اول القرن الخامس عشر . ويرينا اللوح المرفق منظره مع مئذنة العروس. التي بني قسمها العلوي المضلع في ذلك الوقت.



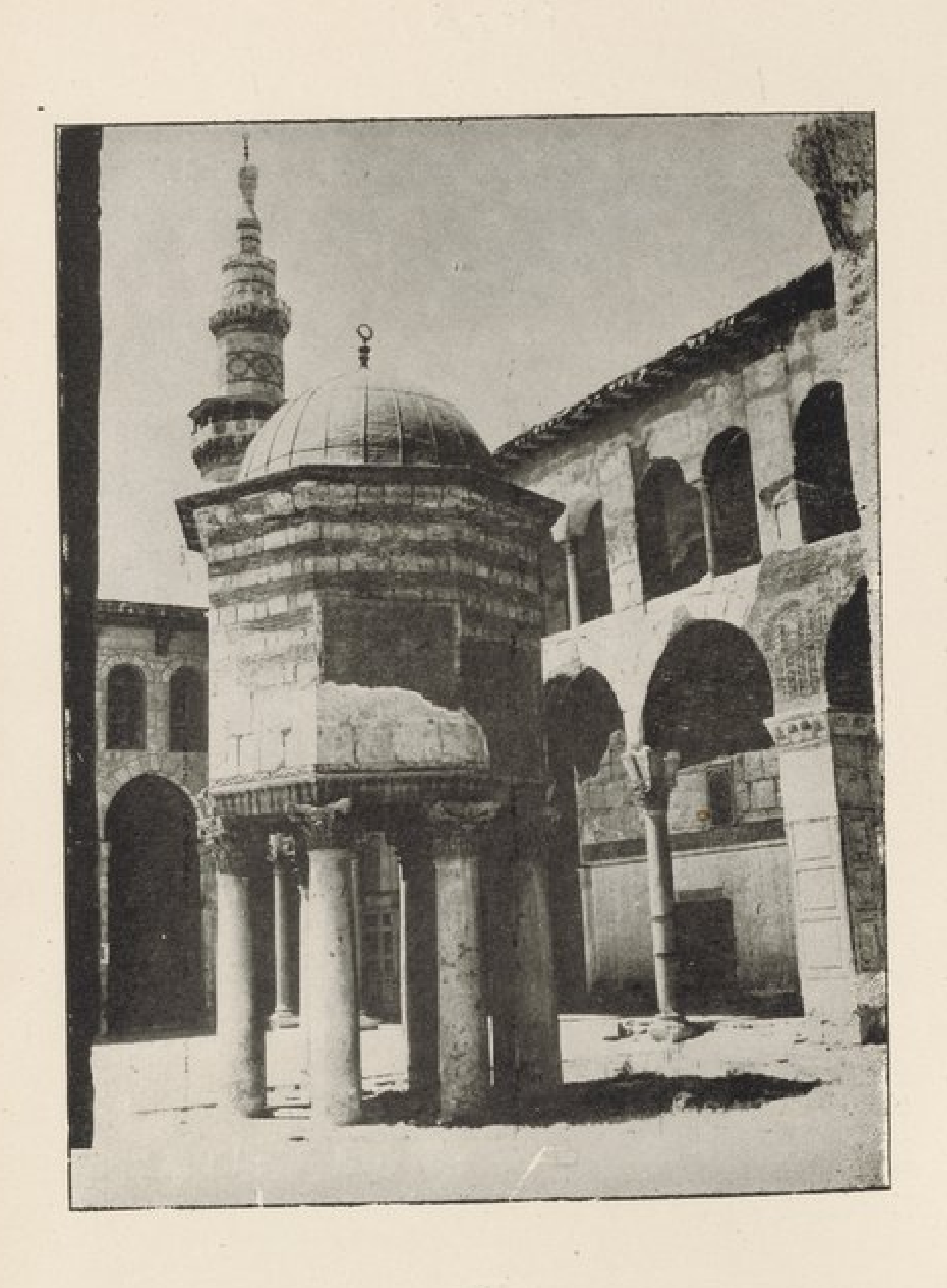
(اللوح ١١)

قبة الخزنة

بني هذا البناء الصغير ذو الشكل المثمن ، ليوضع فيه مال الدولة . وهو يستند على ثمانية أعمدة ، غارت أقسامها السفلية في أرض الصحن وهي تحمل تيجاناً كورنثية فوقها افريز يشبه الأفاريز الرومانية . وفوق البناء قبة صغيرة من الرصاص ، يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض (٩٫٩٥ م)

ويلاحظ أن طريقة بناء جذع قبة الخزنة تشبه الطرق المعهودة في بناء المنشآت البيزنطية . أي أن صفوف الأحجار المنحوتة تتعاقب فيه مع صفوف الآجر . ويقول المقدسي إنها كانت مستورة بالفسيفساء ، كما أن ابن جبير الأندلسي يتحدث عنها فيقول إنها كانت مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة ، كأنها الروضة حسناً ، ولم يبق من هذه الفسيفساء إلا بعض آثارها المشوهة

وينسب أبو البقا بناءها الى الوليد بن عبد الملك . أما العلموي فإنه يقول أنها بنيت بأمر الفضل بن صالح بن علي ، حاكم دمشق العباسي في سنة (١٧٢ هجرية = ٧٨٨ ميلادية) .



(اللوح ١٢)

البلاطة الوسطى في المسجد الأموي

تمتد البلاطة الوسطى من الجنوب الى الشمال وتقسم حرم المسجد الى قسمين متساويين تقريباً . وتتألف واجهتها الخارجية من فتحة وسطى ، فوقها ثلاثة أقواس محمولة على سوريات ذات تيجان كورنثية وفوقها أقواس أصغر منها .

وتحد هذه الفتحة من كل جانب ركيزتان غليظتان ، سمك كل منهما (٢٫٣٥ م) . وهما تحملان أثقال أقواس المسجد الداخلية .

أما سقف البلاطة المذكورة فهو عمودي على سقوف البلاطات الداخلية المستعرضة . وتعلوه في وسطه قبة اسمها (قبة النسر) ، أعيد إنشاؤها على غير شكلها الأصلي بعد احتراق المسجد سنة ١٨٩٣ م . وحولها أقواس مدورة مجتمعة حول ركيزتين . ويلاحظ في يسار اللوح المرفق في الطرف الجنوبي الشرقي من المسجد (مئذنة عيسى) التي يعود عهد إنشائها الى القرن الحادي عشر . وهي مبنية شأن المئذنة الغربية التي شيدت في القرن الخامس عشر على برجي البناء القديم .

وهنالك مئذنة ثالثة وهي (مئذنة العروس) التي بناها الوليد ؛ وأعيد بناء قسمها العلوي في القرن الحادي عشر .

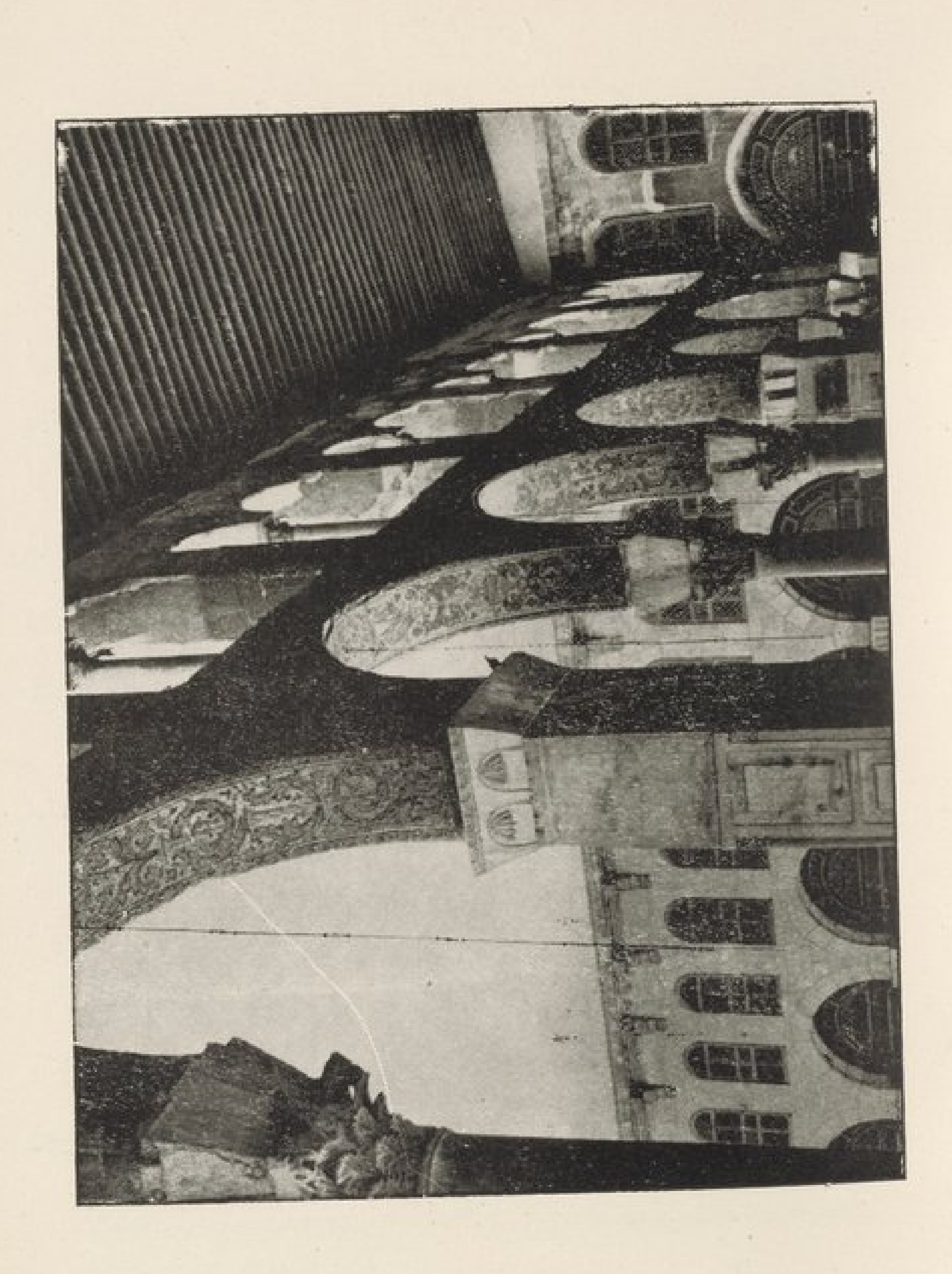


(اللوح ١٣)

فسيفساء المسجد الأموي

زين هذا المسجد في زمن الوليد بفسيفساء جميلة . دقيقة الصنع ثم طليت هذه الفسيفساء في زمن من الأزمان بطبقة من الكلس لم تنزع عنها إلا في سنة ١٩٢٧ وقد صنعت من مكعبات زجاجية صغيرة ملونة ومذهبة ومن قطع من الصدف . ونضدت على أشكال تمثل مناظر طبيعية مختلفة . ويشاهد فيها أيضاً عدد من العمارات خلال حدائق غناء . ولا ريب انها تمثل لنا صور دمشق وقراها وغيرها من المناطق والبلاد الاخرى التي منها مكة المكرمة ، وذلك كما عرفها العصر الأموي . وقد أحيطت بأشجار باسقة تعلوها الأثمار والأزهار .

وتمتد هذه الفسيفساء حتى على سطوح الأقواس . ويشاهد في الصورة المرفقة ، على استدارات أقواس الرواق الغربي ، عدد من شوكات اليهود (آكانت) تخرج ورقاتها وكؤوسها من الأواني أو قرون الخصب ، ثم تمتد على شكل منحنيات بديعة أو أغصان يعلو بعضها بعضاً .



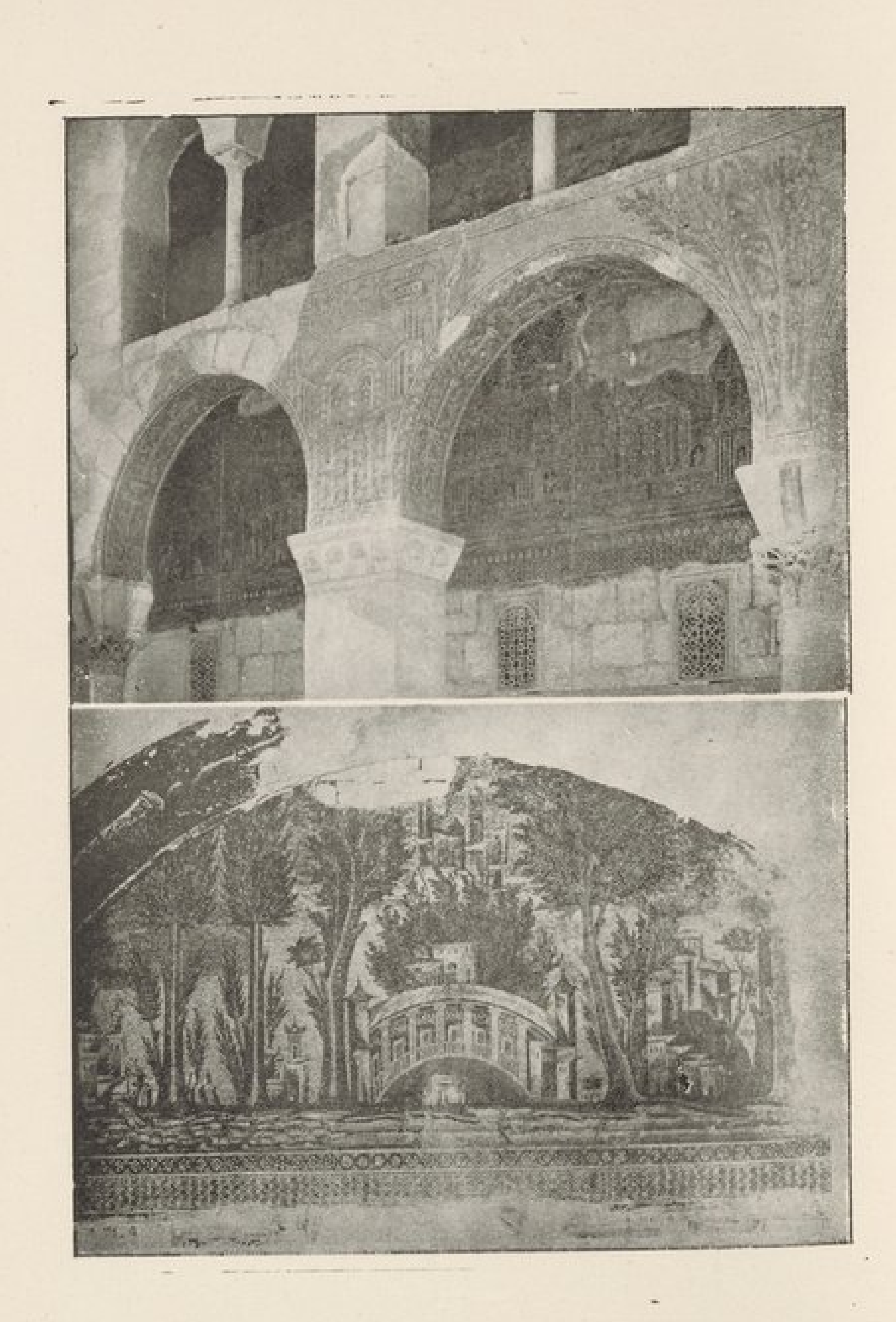
(اللوح ١٤)

فسيفساء المسجد الأموي

لقد زين جدار الرواق الغربي في المسجد الاموي كما هو واضح في الصورة العلوية ، بلوح كبير من الفسيفساء ، يمثل صورة رمزية لبعض أبنية دمشق في العصر الاموي ، وهي محاطة ببساتينها الخضراء ويرى نهر بردى قبل أن يدخل المدينة . ويلاحظ أن مياه هذا النهر هائجة صاخبة في طرف الصورة ، ثم تهدأ تدريجاً لما تجتاز العاصمة . كما يشاهد أن دمشق محاطة بقرى صغرى لها أشكال مخروطية ، ومبنية على مرتفعات ، أو مختبئة في ظلال الاجمات . وفي صدر لوح الفسيفساء أبنية كبيرة فخمة . تحيط بها ثمانية أشجار باسقة نبتت على شاطىء النهر .

ويلاحظ في السطح الاول الواقع بين قوسين من هذا الرواق ، بناءان لهما سقفان مدببان ، ومزينان بعروق نباتية ذهبية ، ودرابزين مرمرية . ويشاهد في السطح الثاني بين أقواس هذا الرواق وهو ظاهر في الصورة السفلية من اللوح (١٤) بعض الابنية الدمشقية الاخرى ، وهي مغطاة بسقوف مستوية أو مدببة ، محمولة على ركائز حديدية . ويظن أن البناء المتوسط المبني على شكل نصف دائرة هو واجهة ملعب للخيل ، كان في زمن الامويين في دمشق وهو غير دار للخيل التي كانت بالقرب من قصر الخضراء .

اما بقية سطوح الاقواس فيوجد عليها زخارف نباتية وعمارات أخرى .



(اللوح ١٥)

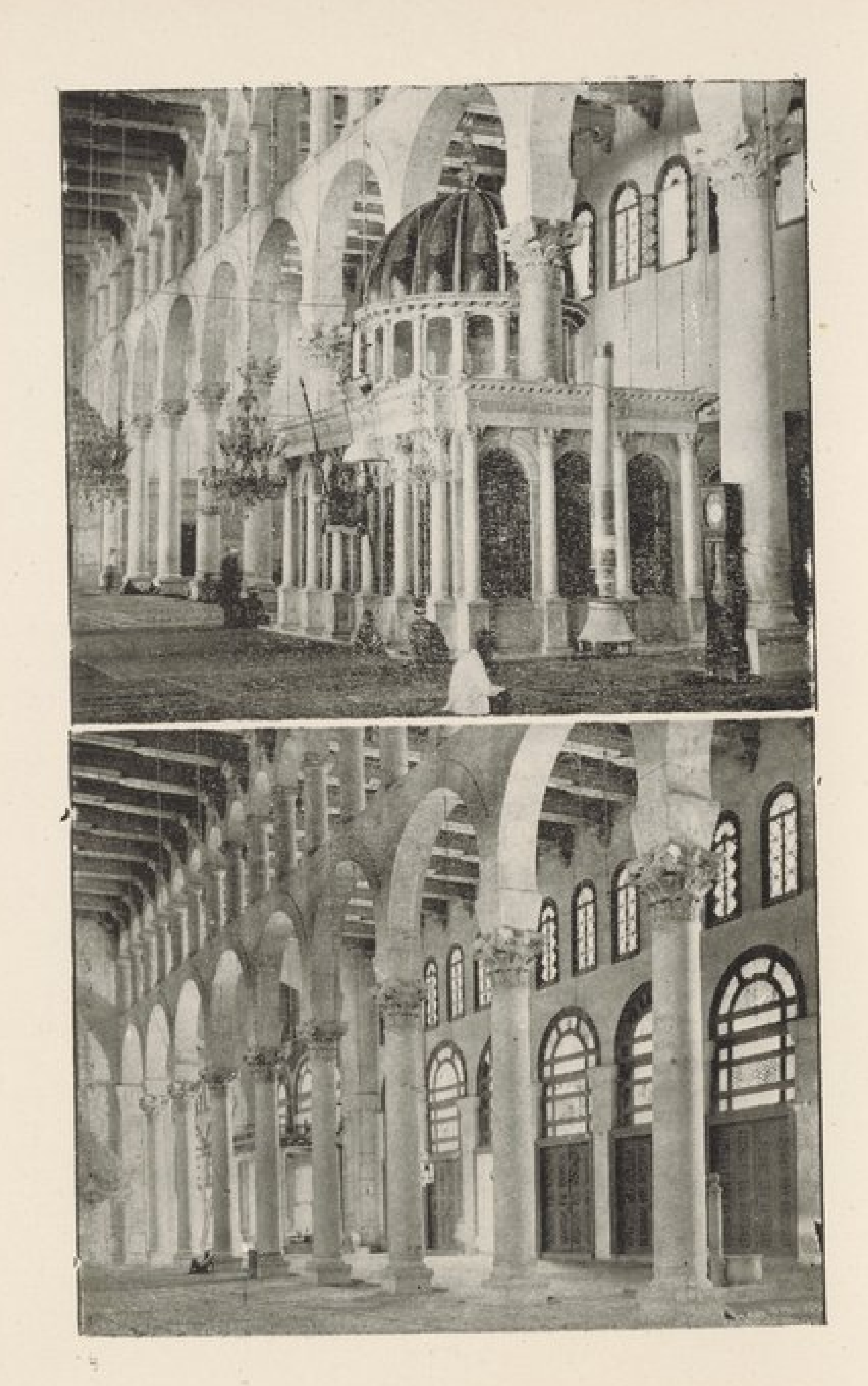
الحرم في المسجد الأموي

وقد جدد داخل الحرم بعد الحريق الذي أصاب المسجد سنة ١٨٩٣ م. ويبلغ طوله ١٣٦ متراً ، وعرضه ٣٧ متراً . وهو مقسوم إلى ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الأقواس ، موازيين للجدار الجنوبي ، ومحمولين على أعمدة مرمرية ، لها تيجان كورنثية . وفوق هذه الأقواس الأخرى التي تحملها سويريات صغيرة .

ويحد الحرم من طرف الصحن سلسلة أخرى من القناطر التي سدت فرجاتها بأخشاب جميلة وتغطيه ثلاثة سقوف لكل منها منحدران . وتعترض هذه السقوف البلاطة المتوسطة ، فتقسمها إلى قسمين متساويين .

ويرى في الصورة العلوية ضريح النبي يحيي (عليه السلام) وشكله مربع ، وفوقه قبة وبناؤه غير قديم .

ويلاحظ أن حرم المسجد يؤيد ماذهبنا إليه ، وهو أن بناء المسجد كله من عمل الوليد . إذ أن مخططه ، وطوله ، وانقسامه إلى ثلاث بلاطات متساوية ، واتصاله بالصحن ، لا تجعله شبيهاً بأي بناء سوري في العهد البيزنطي . كما أن المؤرخين المسلمين والمسيحيين مجمعون على أن الوليد هدم كنيسة القديس يوحنا ليبني مسجده في موضعها .

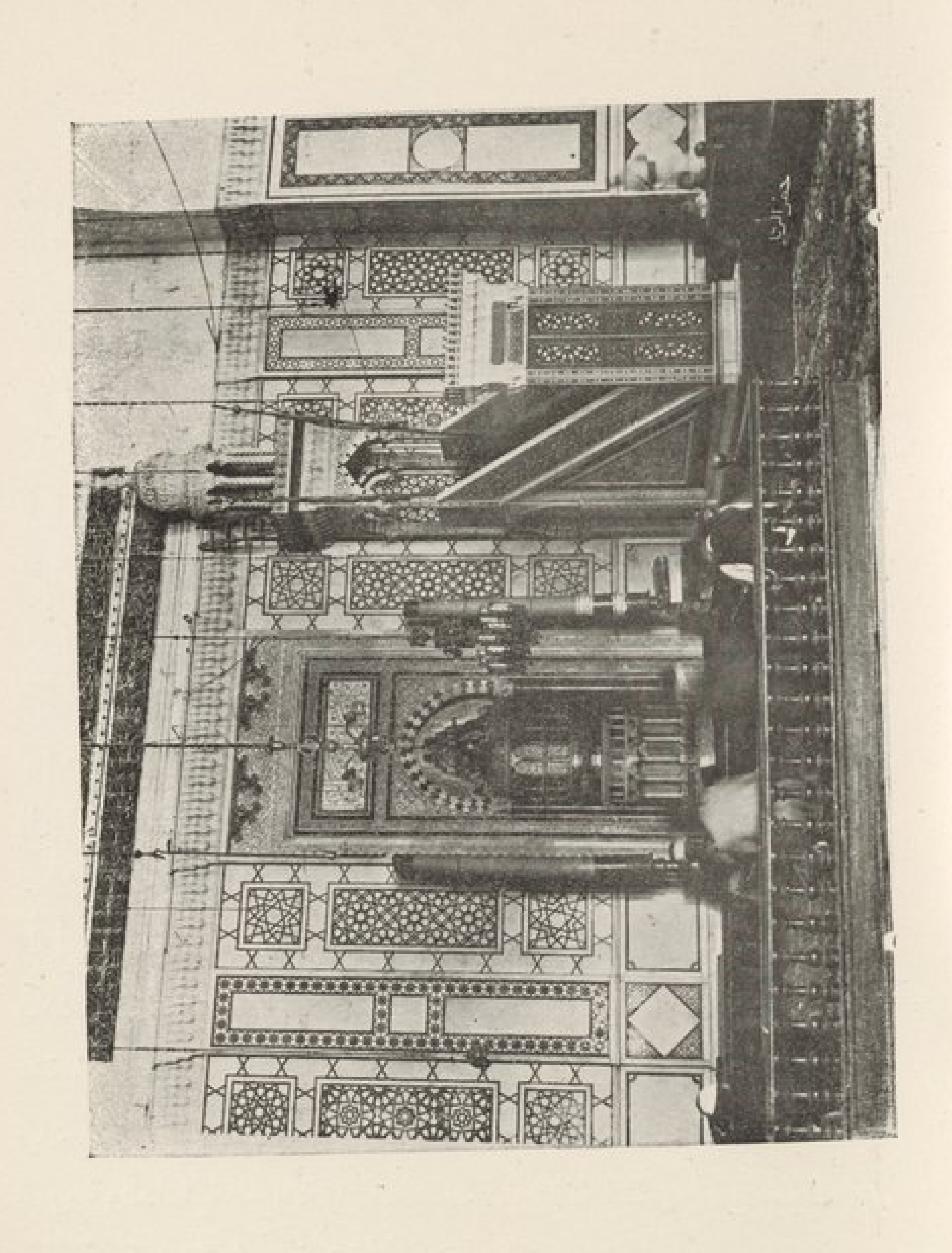


(اللوح ١٦)

محراب المسجد الأموي

ويوجد في الجدار القبلي من الحرم أربعة محاريب ثلاثة منها قديمة . وهي محراب الصحابة في الطرف الشرقي ، والمحراب الكبير في الفرجة الغربية من الباب المثلث في السور القديم ، والمحراب الحنفي الذي جدد سنة (١٣٢٨ م) في الطرف الغربي . أما المحراب الرابع ، وهو في أقصى هذا الطرف فحديث . ويلاحظ أن محوري المحرابين الأوليين يتفق مع محور البلاطة الوسطى .

ويرينا اللوح (١٦) المحراب الكبير المرخم أبدع ترخيم ، والمرصع بصفوف من الصدف والمرمر الملون ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وجعلت على ألواح مستطيلة منسقة .



(اللوح ١٧)

قصر الحير الغربي

لقد حرمنا العباسيون بتهديمهم قصور الأمويين في دمشق من وثائق صحيحة ملموسة، تدلنا على فن العمارة المدنية الأموية الدمشقية. غير أن المكتشفين الأثريين تمكنوا من العثور في باديه الشام، على خرائب وأطلال ثلاثين قصراً أموياً قدمت لعلم الآثار معلومات ثمينة عن الفن المذكور.

ولا يخفى أن الخلفاء الأمويين احتفظوا بطباعهم العربية، وظلوا يحنون الى الصحراء ويتشوقون الى حياة التبدي. لهذا فانهم كانوا يتركون دمشق عاصمتهم بين حين وآخر الى البادية لينعموا بلذة الصيد، ويتلقوا اللغة الصحيحة عن ألسنة أصحابها، ويلتقوا بزعماء القبائل العربية، ويبتعدوا عن تقشف المدينة، ويستسلموا الى حياة الأنس والدعة.

وهذا ما دعاهم إلى إنشاء القصور المتقدمة في البادية وأكملها قصر الحير الغربي الذي يقع على طريق دمشق، بين القريتين وتدمر في واد يخصبه السيل، وقناة من الماء تتصل بسد حربقة (على بعد ١٥ كيلو متراً)، ويعود عهد إنشائها وإنشاء السد إلى العصر الروماني. وقد بنى القصر هشام بن عبد الملك، وجعله مركز منطقة استثمار زراعية. وكان يوجد إلى جانبه خان وحمام، وشكله مربع تقريباً (٧٠م × ٧٠م). وله أبراج نصف مستديرة في زواياه وجوانبه، ويحوي في داخله حول باحة مربعة مكشوفة، ستة بيوت، في كل منها قاعة كبيرة مستطيلة متوسطة، وعلى جانبيها عدة غرف صغيرة. وتستند هذه البيوت كلها على جدران القصر من الداخل.

ويلاحظ أن هذا النموذج من البناء، يستوحى أصوله وقواعده من عناصر الأبنية السورية والساسانية المعروفة قبل هذا العصر. ويؤلف ابتكاراً أموياً سوف يبني سكان الشرق دورهم على نموذجه خلال مدة طويلة.

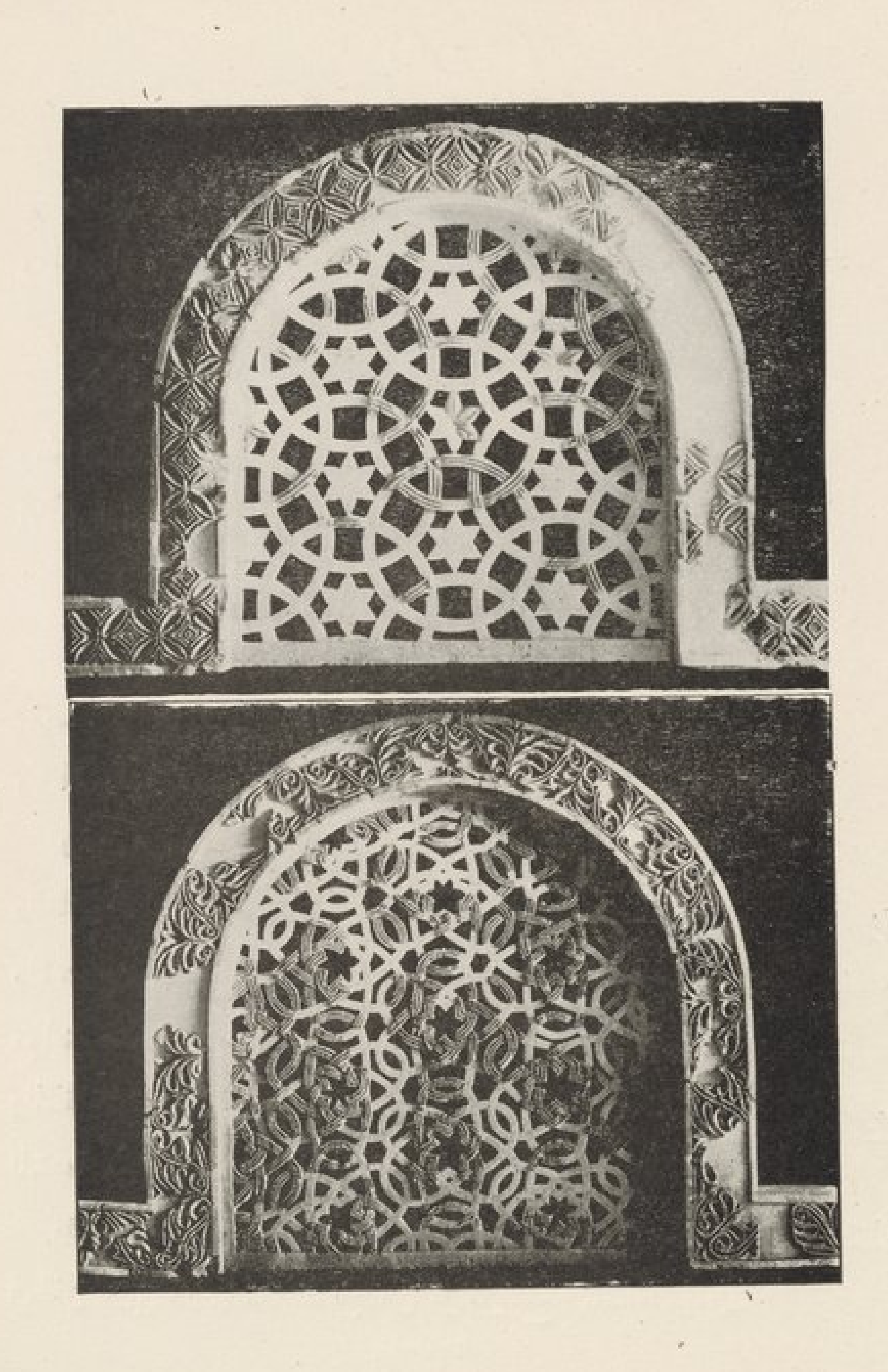


(اللوح ١٨)

قصر الحير الغربي

انتهى إلى عصرنا من تزيينات قصر الحير الغربي عدد كبير من مجموعات الزخارف الجصية التي جمعت من خرائبه ، ونقلت إلى متحف دمشق ، وأعيد إنشاؤها فيه فأصبحت مصدراً رئيسياً لمعرفة منشأ الفن العربي ، وتطور حياة الأشكال في سورية خلال القرن الأول والثاني من الهجرة .

ونشاهد في اللوح السابق الواجهة الخارجية لهذا القصر مع البرجين اللذين يحيطان بالباب الرئيسي وقد أعيد تركيبها في جانب من جوانب المتحف . ويبلغ ارتفاعها نحو (١٦) متراً . وهي مزينة كلها من أسفل أسكفة الباب حتى مسننات البرجين ، بطبقة منحوتة من الزخارف الجصية ، المنظمة على عدة مناطق يعلو بعضها بعضاً . وتنقسم كل منطقة من هذه المناطق الى مستطيلات مزينة بمواضع نباتية ، كشوكات اليهود ، وسعفات النخل وغيرها . وتشاهد المعينات ، والمربعات ، وصفوف السويريات الصغيرة التي تحيط بمحاريب حاملة جبهات ، والوردات والألواح التي فيها بعض صور الاشخاص حول القوس المركزي المدور ، وفي أقسام البرجين العلوية .



(اللوح ١٩)

قصر الحير الغربي

وكان داخل القصر مزيناً بمجموعات أخرى من الزخارف الجصية المنحوتة . ومنها درابزين كانت موضوعة في أعلى الرواق الشرقي ، وفيها عدة مشاهد وأشكال تحوي أشخاصاً وحيوانات مختلفة .

ومنها أيضاً أقواس ونوافذ كانت موضوعة فوق أبواب بعض القاعات الكبرى ، ومنها قاعات الاستقبال في الجناح الشرقي . وقد اجتهد موظفو ومستخدمو مديرية الآثار العامة خلال أعوام طويلة حتى تمكنوا من إعادة تركيب نحو خمسين قطعة منها .

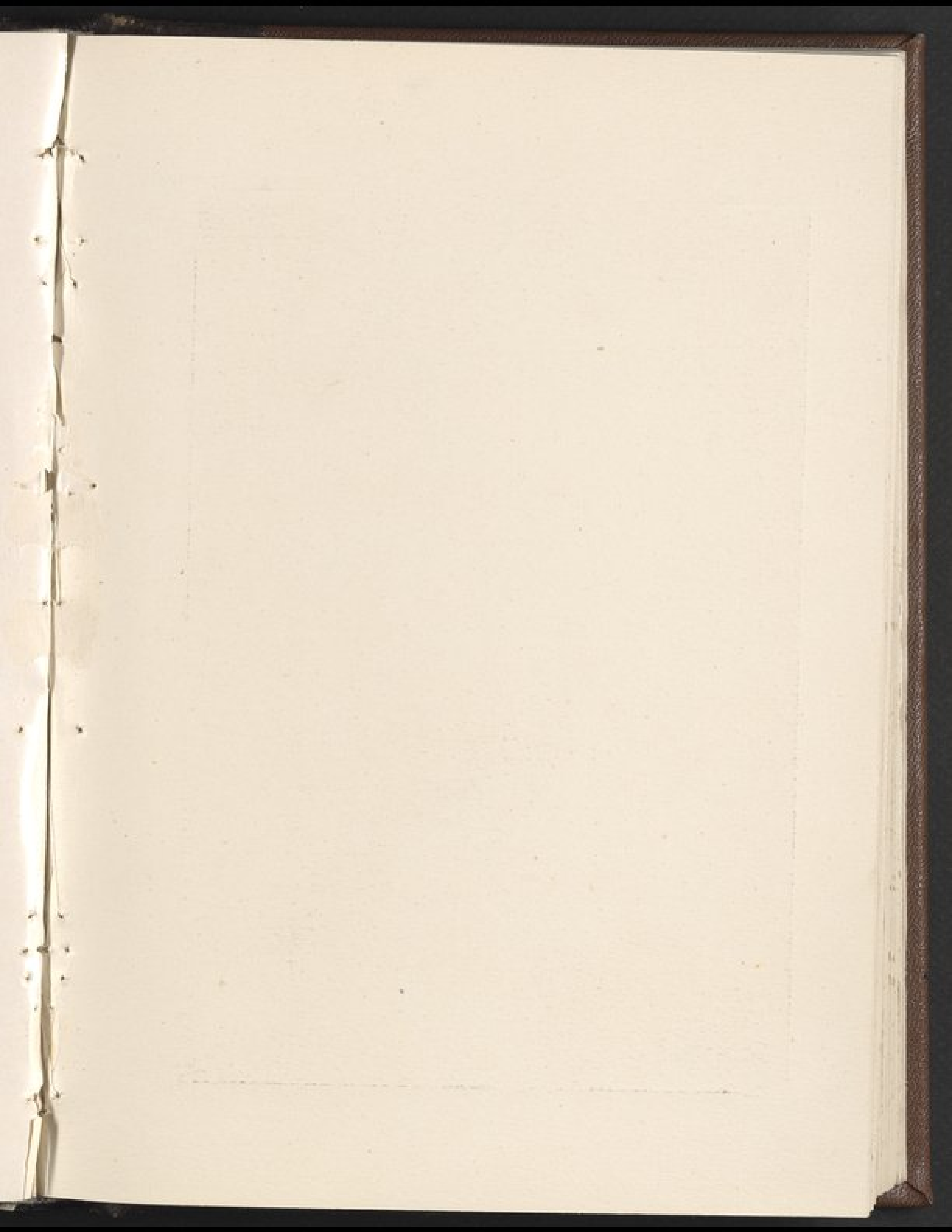
وقد لوحظ أن أبعادها مختلفة ، وأن بعضها قطع فنية رائعة ذات جمال ساحر .

ويمثل لنا اللوح (١٨) نافذتين منها ، كانتا فوق بابين من أبواب القاعة (٧) من القصر . كما يمثل لنا اللوح (١٩) نافذة ثالثة (وهي السفلى) كانت في نفس القاعة ، ونافذة رابعة كانت في القاعة (٥٥) من القصر .

ويتبين منها غنى الزخارف الهندسية والنباتية التي ابتكرت في العصر الأموي . والظاهر أن الفنانين الذين صنعوها استوحوا من المواضيع الشائعة في فنون اليونانيين والتدمريين والمسيحيين والساسانيين ، وتمثلوها بسهولة عجيبة وأتقنوا استخدام مواضيع سعفة النخيل وشوكة اليهود ، وعنقود العنب ، وصفوف البيوض ، والمستطيلات البارزة ، وبرعوا براعة لا تجارى في المواضيع الهندسية وتقريب المواضيع المتقدمة منها وذلك بتحويلها عن أصولها .

وقد ولد أسلوب الزخارف الأموية من جهودهم وأبحاثهم ، وتكاملت لغة الأشكال في الفن العربي ، وتهيأت لأن تعبر عن كل ما يختلج في أفئدة الملهمين .





دِمشق في أزمان السلجوقيين ونور الدين والأيوبيين والمماليك

انتهى في سنة (٤٦٨ هـ - ١٠٧٦ م) عهد الفوضى والاضطراب الذي حل في دمشق منذ القرن التاسع ، وذلك لما قدم اليها الامير السلجوقي (أتسز) فانتزعها من سلطة خلفاء القاهرة الفاطميين ، وضمها الى دولة السلجوقيين . وكان هؤلاء قد ظهروا على مسرح سياسة الشرق الادنى منذ مدة قصيرة ، وأسسوا دولة واسعة بعد ما انتزع طغرل بك أحد أمرائهم الأقوياء السلطة الفعلية من خليفة بغداد العباسي ، وحكم البلاد الاسلامية باسمه . وقد ضموا إليهم بلاد فارس والعراق والأناضول وسورية ، وغدوا مرهوبي الجانب ، ويلعبون دوراً كبيراً في حوادث ذلك العصر .

غير ان هذه الدولة الواسعة تمزقت بعد وفاة (ملكشاه) . وقام خلفاؤه من بعده يتنازعون ملكية اقطارها المختلفة . وقد انتهى أمر دمشق الى ابن اخيه تاج الدولة تتش ، فاصبحت امارة سلجوقية حكمها أمراء مختلفون حتى منتصف القرن الثاني عشر . وأشهرهم ظهير الدين طغتكين الذي تولى زمام الأمور فيها مدة ربع قرن منذ سنة (٤٩٧هـ - ١١٠٥) . وقد سعى لتحصين دمشق وتقوية دولته وتأمين رخائها واستقرار إدارتها ، وعقد المعاهدات مع الأمراء السوريين ، ليتمكن من الوقوف امام الصليبيين الذين انحدروا في آخر القرن الحادي عشر من جبال طوروس ، خلال الحروب الصليبية الاولى . فاستولوا على جزء كبير من سورية الشمالية ، وعلى سواحلها وأسسوا مملكة القدس .

واستمرت هذه الحروب الضارية التي شنها الغرب على الشرق مدة طويلة . وقد عبأ المسلمون والمسيحيون خلالها جميع قواهم المعنوية والمادية ، واقتتلوا في مئات المعارك الكبيرة والصغيرة ، قبل ان يتعرفوا على بعضهم ، ويقدروا المزايا العالية التي يتصف بها كل منهم . وأصبحت دمشق خلال ذلك مدينة عسكرية ذات أهمية بالغة بالنسبة للعالم الاسلامي ، لموقعها المتوسط بين الحواضر الاسلامية ، ولقربها من القدس التي كانت المحور الاساسي للصراع .

وسعى (أتسز) حسب ماهو منصوص عليه في إحدى وسائل ابن طولون ، أو تاج الدولة (تتش) كما يذكر المؤرخ عز الدين بن شداد ، لجعلها حصينة . فبنيت قلعة على الطرف الشمالي الغربي من سورها ، واستفاد المهندسون من تخطيطه ، واستعملوا في البناء أحجاره الضخمة . وقام خلفاء هذين الاميرين من بعدهما للعناية بهذه القلعة التي أصبحت تؤمن الدفاع عن دمشق .

واهتم أمراء دمشق السلجوقيون ايضاً بالذب عن المذهب السني ، ومكافحة الدعوات الفاطمية والاسماعيلية . وعملوا على إنشاء المدارس التي تعلم الطلاب العلوم الدينية ، وتفقههم فيها ، وتجعل منهم جنوداً يدافعون بحرارة عن العقائد السنية . وكانت المدارس الاولى التي أنشئت في دمشق واندثر أكثرها : المدرسة الصادرية التي شيدها صادر بن عبد الله سنة (٤٩١ ﻫ) ، والمدرسة الأمينية التي بناها الاتابك كمشتكين سنة (٤٩٣ ﻫ) ، والمدرسة المعينية التي أسسها الامير معين الدين (وقد هدمت ولم يبق لها اثر) والمدرسة البلخية سنة (٥٢٥ ﻫ) ، والمدرسة الشريفية سنة (٥٣٦ ﻫ) الخ ..

وانصرف السلجوقيون لتشييد عدد آخر من العمارات الدينية والمدنية وساعدهم على ذلك النشاط التجاري والتقدم الصناعي اللذين اختصت بهما دمشق في ذلك العهد . ومن هذه العمارات مسجد الوزير الذي بني سنة (٥٢٣ ﻫ) ، وعدد كبير من المدافن والقبور ومنها تربة صفوة الملك زوجة طغتكين (مكان سينما روكسي الحالي) ، وضريح الامير معين الدين أنر ، غربي حي العقيبة في موضع اصبح فيما بعد نواة لحي جديد سمي (حي العونية) .

وكان من اثر هذه النهضة العمرانية ان المدينة ابتدأت تمتد خارج سورها ، وأن نشأت أحياء جديدة في ضواحيها ، وأن انتظمت أحياؤها القديمة . ومن هذه حي العقيبة الذي أجري اليه الماء ، وبنيت فيه عدة قصور ، وجعلت حولها الحدائق فأصبح مقر بعض الأمراء .

وفي الزمن الذي حاول فيه الاتابك زنكي أمير الموصل تأسيس دولة في شمالي سورية ، كانت دمشق قد اشتهرت بحروبها ضد الآمارات اللاتينية الساحلية ، وأصبحت مركزاً للدعوة الى الجهاد . وعظم شأنها في العالم الاسلامي ، وغدت المطمع لكل من يحاول ان يوحد أجزاء هذا العالم ، ليوجه جهود اهله لمكافحة الصليبيين . لهذا فإن نور الدين محمود زنكي الذي ورث عن ابيه تقاليده العسكرية وشهرته الحربية ، استولى عليها سنة (٥٤٩ ﻫ = ١١٥٤ م) ، وجعلها قلب امبراطوريته الواسعة التي امتدت فيما بعد على كل البلاد الاسلامية الواقعة بين مصر وفارس .

ومات نور الدين بعد أن عاش فيها خمسة عشر عاماً صرفها في حسن معاملة سكانها ، ونشر العدل بينهم والسهر على إتمام تنظيماتها العمرانية . وقد اهتم خاصة بتحصينها ، وإتمام بناء أسوارها التي تهدمت في الأزمنة السابقة ، وتحويلها عن تخطيطها القديم ، وجعلها تضم مساحات من الأراضي أوسع مما كان يحويه السور القديم . وقد انحرفت هذه الأسوار في كل الجهات عن شكلها المستطيل السابق ، واصبح لها شكل متعرج ومندفع خاصة الى جهتي الشمال والجنوب .

ويلاحظ ان ترميمات نور الدين كانت حسب مبادئ التحصين العسكرية الرومانية والبيزنطية القديمة . ثم إنه اضاف الى السور عدة ابراج حصينة . كما انه بنى باب الفرج وباب السلامة ، ورمم عدة ابواب اخرى . منها الباب الشرقي وباب الجابية والباب الصغير وجعل على كل منها منارة ولكل منارة مسجداً . ونظم فيها سوقاً (باشورة) ذات حوانيت ، ويمكن إغلاقها ، ليتمكن أهلها من البقاء فيها ، لدى حدوث غارات الاعداء ، وإقامتهم الحصار على المدينة .

ومن مآثره انه بنى دار العدل غربي القلعة ، وخصصها لفض المنازعات بين الناس . كما انه شيد دار المسرة في داخل القلعة . ويعد البيمارستان الذي بناه في السنة الأولى من دخوله الى دمشق أشهر منشآته . وقد بناه من مال الفداء الذي أخذه من أحد ملوك الأفرنج ، كان في اسره ، وقدره ثلاثمائة ألف دينار .

وقد ظهرت في هذه المنشآت تأثيرات العراق وفارس في فن البناء ، التي تمثلها الدمشقيون وطبعوها بطابعهم ، كاتباع نظام التعامد في الأبنية ، وجعل القباب عليها ، وتزيين ابوابها بالمقرنصات ، وطلي جدرانها بالزخارف الجصية ، واستعمال الخط النسخي فيها إلى جانب الخط الكوفي ، ومن منشآت نورالدين أيضاً المدارس . وأشهرها المدرسة النورية الكبرى التي دفن فيها ، والحمامات كحمام نور الدين المشهور ، والجوامع والخانات والرباطات وغيرها .

فكان بكل هذه الاعمال من اشهر الملوك الذين تولوا حكم دمشق ، وحفظت ذكراهم فيها إلى الأبد .

* * *

وبعد ان توارى وجه نورالدين العظيم عرفت دمشق خلفاً له ، لا يقل عنه شهرة ومجداً وحباً للعمران ورغبة في الاحسان الى الرعية . وهو صلاح الدين يوسف الأيوبي احد ابطال التاريخ العالمي في كل الأزمان ، والذي سعى – بعد إلغاء الخلافة الفاطمية في القاهرة ، الى القضاء على فكرة الحروب الصليبية قضاء مبرما . فاستولى على دمشق

وحلب واجتهد حتى اتم استعداداته العسكرية ، وفرض على ملك القدس الصليبي معركة حطين التي أودت بعرشه وأدت الى سقوط عاصمته .

وكانت دمشق في عهده مركزاً لأمبراطوريته الواسعة التي تمتد على قسم كبير من الشرق الادنى ، وكان يميل إلى البقاء فيها ، ويعطف على أهلها ، ويحسن معاملتهم ، ويعفيهم من كثير من الضرائب . وقد أتم هو وأخوه الملك العادل وخلفاؤهما من بعدهما السياسة العمرانية التي بدأها نور الدين . فأكمل إنشاء جهاز المدينة الدفاعي ، وتم جعلها مركزاً للاشعاع الديني والعلمي في كل انحاء العالم الاسلامي .

وقد انصرف الملك العادل لاعادة بناء القلعة كلها منذ سنة (٦٠٥ هـ = ١٢٠٦ م) ، وذلك لـكي تكون تحصيناتها متفقة والمبادىء الجديدة التي توصل إليها الفن العسكري في ذلك الزمن . وسار على خطته هـــذه أربعة سلاطين من خلفائه ، وساهموا في تشييدها وجعلها على شكل مستطيل ، أبعاده (٢٢٠ م × ١٦٠ م) ، وحوله اثنا عشر برجاً . وقد أصبحت مقر الحياة السياسية والإدارية في دمشق . وكان فيها قاعة للعرش ومكاتب للادارة المدنية وأخرى للادارة العسكرية ، وبرج للطيور التي تنقل البريد ، ومصنع أسلحة ، ومكان لخزينة الدولة ، وسجن . وكانت فيها أيضاً سوق وعدة حمامات ومسجد . وخلاصة القول إنها غدت مدينة صغيرة يمكنها ان تكتفي نفسها بنفسها .

وعمل الأيوبيون أيضاً على إصلاح أسوار دمشق التي كانت مناعة بنائها القديم دون مناعة اسوار القلاع الجديدة ، التي امتلأت بها البلاد السورية في ذلك العهد . فبنوا سوراً حصيناً في الشمال بعد السور القديم . وفي عهدهم اصبح للمدينة ميدانان عسكريان يتمرن فيهما الفرسان والجنود على اعمال القتال . وهما : الميدان الأخضر في غرب المدينة ، وكان محاطاً بالأشجار ، ويبلغ طوله نحو (٥٠٠ م) ، وعرضه نحو (١٥٠ م) ، وميدان الحصا في جنوبها .

وتكاثرت المدارس خلال حكمهم . وكانت تشبه بعض الشيء ، بتخطيطاتها وتوزيع غرفها وواجهاتها ، مدارس عهد نور الدين . وكانت الغاية من إنشائها كما قلنا تعليم الطلاب الفقراء وإسكانهم . لهذا فإن الأمراء الايوبيين ، وأعيان المدينة كانوا يبنونها ويجعلونها على أشكال مكعبة فوقها قباب واطئة ، ومحاطة بجدران خالية من الزخارف ، ولها ابواب ، تعلوها بعض الزخارف البسيطة . وهي بصفاتها هذه تعكس تقشف هذا الزمن الحربي ، وتمنح دمشق منظر المدينة العاملة المجاهدة ، وتعد الزمن الكلاسيكي في تاريخ الفن

الدمشقي . أما داخلها فقد كانت له باحة متوسطة تنتظم حولها غرف الدرس . ولا يخلو كل ذلك من روعة لمتانة بنائها ، واتساق تأليف منهاجه ، الذي يتفق مع حياة الفكر اللائذة في أفيائها . واشهر المدارس التي نشأت داخل سور المدينة ، مدارس العزيزية ، والعادلية الصغرى ، والعادلية الكبرى الخ .. وخارج السور الشامية ومدارس الصالحية التي اتسعت وأصبحت كأنها مدينة جامعية مستقلة ، وكثرت فيها ايضاً الجوامع والقصور والأسواق . فكان بذلك العصر الايوبي من أيمن العهود على دمشق . وعلى الرغم من قصر مدته فقد تمكن أهلوه من تشييد منشآت هي اضعاف ماشيده العصر التالي الذي دام مدة أطول بكثير .

* * *

وبدأت الحروب الصليبية تجتاز مرحلتها الأخيرة ولم يكد أهل الشام يتخلصون من ويلاتها حتى اجتاح المغول العراق بسيلهم الجارف ، واستولى (هولاكو) حفيد جنكيز خان على بغداد ، وأنزل بها شروره . ثم توجهت جيوشه الدافقة نحو البلاد السورية ، فدخلت حلب ودمشق ، وعاثت فيها فساداً وتخريباً . وتقدمت إلى الجنوب فالتقت بجيش المماليك البحرية ، الذين كانوا قد وضعوا أيديهم على عرش القاهرة ، في عين (جالوت) سنة (١٢٦٠ م) فهزمت شر هزيمة .

ثم تولى الملك الظاهر بيبرس الحكم غداة هذا الانتصار ، فكان من أعظم الملوك المناضلين الذين عرفهم التاريخ الاسلامي . إذ أنه وجه القتال بهمة لا تعرف الكلال ضد الصليبيين الذين أخذت تضيق رقعة ممتلكاتهم شيئاً فشيئاً ، وتسقط الحصون التي يعتصمون بها الواحد بعد الآخر .

وقد استولى الملك الظاهر على أكبر مدينة لهم في الشمال وهي أنطاكية ، كما دخل خلفه قلاوون عكا وطرابلس ، وانتهت بذلك الحروب الصليبية .

وقد انصرفت همة الملك الظاهر وبقية سلاطين المماليك إلى مكافحة المغول الذين رابضوا في شمالي العراق ، وأخذوا يغيرون منها على بلاد الشام على فترات مختلفة منذ ذلك الزمن حتى منتصف القرن الرابع عشر ، حيث فل خطرهم ، وتفرقت جماعتهم ، وفقدوا طباعهم الوحشية وأخلاقهم الحربية . وكانت دمشق آنئذ مركزاً من مراكز تجمع الجيوش المقاتلة . غير أنها ضمت الى مصر مع بقية البلاد الشامية ، ففقدت بذلك استقلالها الاداري .

وفي سنة (١٣٨٢ م) تولى المماليك البرجية العرش بدلاً من المماليك البحرية . فكان عهدهم مملوءاً بالانقلابات العسكرية والمؤامرات ، ونزوع الأمراء الى العرش . وما ذلك

إلا لزوال عاطفة الاخلاص الى السلالة المالكة ، وتحكم الرؤساء العسكريين في شؤون البلاد ، وانفرادهم بالتنعم بخيراتها .

ولما حانت سنة (٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م) نزلت بدمشق أكبر النوازل التي مُنيت بها في كل عصور تاريخها الطويل ، وأقبل عليها تيمورلنك وعصاباته البربرية المتعطشة إلى الدماء والاموال . ففرضوا على اهلها (مليوناً) من الليرات الذهبية ولما استوفوها ، دخلوها وأعملوا السيف في رقاب السكان ، والنار في المنشآت . وهدموا بيوتها وقبورها وجوامعها ومدارسها وسبوا نساءها وأطفالها . ويقال إنهم أهلكوا في الجامع الاموي فقط ثلاثين ألفاً من سكانها وبينهم النساء والاطفال . ثم قادوا إلى عاصمتهم سمرقند عدداً كبيراً من صناع الأقمشة والزجاج والاسلحة ، والعلماء والفنانين .

وقد تأثرت حياة المدينة الاقتصادية من هذه الكارثة . وكانت صناعتها قد بلغت درجة كبيرة من الاتقان وذيوع الصيت . واشتهرت خاصة بصنع الاقمشة والادوات الفضية والاسلحة والزجاج المطلي ، وغير ذلك من الاشياء والتحف التي اعتادت تيارات التجارة الداخلية ان تحملها الى القاهرة حيث ينعم بها كل من يلوذ ببلاط المماليك ، وتيارات التجارة الخارجية الى عالم البحر المتوسط ، حيث اتسعت المبادلات بين اقطاره المختلفة اثناء الحروب الصليبية وبعدها .

وظلت القلعة مدينة ملكية كما ذكرنا ، غير ان دمشق لم تعد تستطيع البقاء ضمن سورها القديم ، إذ أن الناس كانوا يضطرون ان يهدموا المنشآت القديمة ليبنوا غيرها في أماكنها . لهذا فان الحياة العمرانية امتدت نهائياً الى كل الجهات . فنشأ سوق الخيل في شمال القلعة وكان يرتاده الفرسان ، ويبتاعون من حوانيته حوائجهم ، ويقيمون فيه حفلاتهم العسكرية ونشأت بقربة سويقة صاروجا وسكنها الجنود وقوادهم . واقام صناع الفخار في شرقي سور المدينة وراء الباب الشرقي . وامتد في الجنوب حي السويقة ، وانتشرت فيه الخانات اللازمة للتجارة البرية التي كانت تتبادل منتجاتها مع مصر وسورية الجنوبية . وكذلك انتظم حي الصالحية واتسع كثيراً ، وأصبح يملك كل المنشآت العمرانية اللازمة .

وعلى الرغم من كل ما أصاب دمشق فان ابنيتها تكاثرت خلال عصر المماليك الذي امتد بين سنتي (٦٥٨ – ٩٢٢ هـ) . ولم يعد الناس خلاله يبنون المدارس كما فعلوا في القرون الماضية بل انصرفت فاعليتهم الى بناء مسجد في كل حي من الاحياء . وكانت منائر هذه المساجد الرشيقة ترتفع في سماء المدينة بجذوعها المدورة او المضلعة وشرفاتها البارزة ، وهي لا تشبه

المنائر القديمة المربعة الضخمة ، المشيدة على شكل الابراج . فكأنها الآن أدعية وابتهالات حارة موجهة الى السماء .

وهكذا فان الفن الدمشقي الايوبي الكلاسيكي المتقشف المتوازن ، استبدل بفن المماليك الرومانطيكي الرشيق الجميل الذي ملأ المدينة بعدد كبير من منشآته . ومنها الحمامات والخانات ودور السكن . وكان من أهمها الترب التي ألفت بمجموعات ظريفة زينت دمشق وضواحيها أجمل زينة .

ويختص فن العمارة في عصر المماليك باتخاذ نظام التعامد في التخطيط نهائيا ، وتصغير الصحن في المساجد احياناً ، وحذفه أحياناً أخرى ، والاكثار من الاواوين الداخلية ، وتشييد أكثر من جبهة في البناء الواحد ، واستعمال الاحجار ذات الابعاد الصغيرة في المداميك ،وجعلها على لونين أبيض وأسود . وعظم شأن الزخارف في الابنية ، وبعد أن كان دورها قاصراً على أن تكون خاضعة لها ، غدت متحكمة في كل أجزائها ، وانتشرت على المآذن والمداخل والمنابر والمحاريب . وأهم عناصرها : الفسيفساء والرخام الملون والمحفور والمطعم بالصدف ،والقاشاني والاخشاب الملونة التي يعتمد عليها الخط النسخي العريض المزهر والاشكال الهندسية التي لا تحصى انواعها ، والمقرنصات التي تعددت أشكالها ، واختلفت ، وصارت تضيف تأثيرها الفني إلى تأثير الجبهات المتعددة الالوان ، فتنعكس عليها الأنوار وتنشأ منها ظلال رائعة .

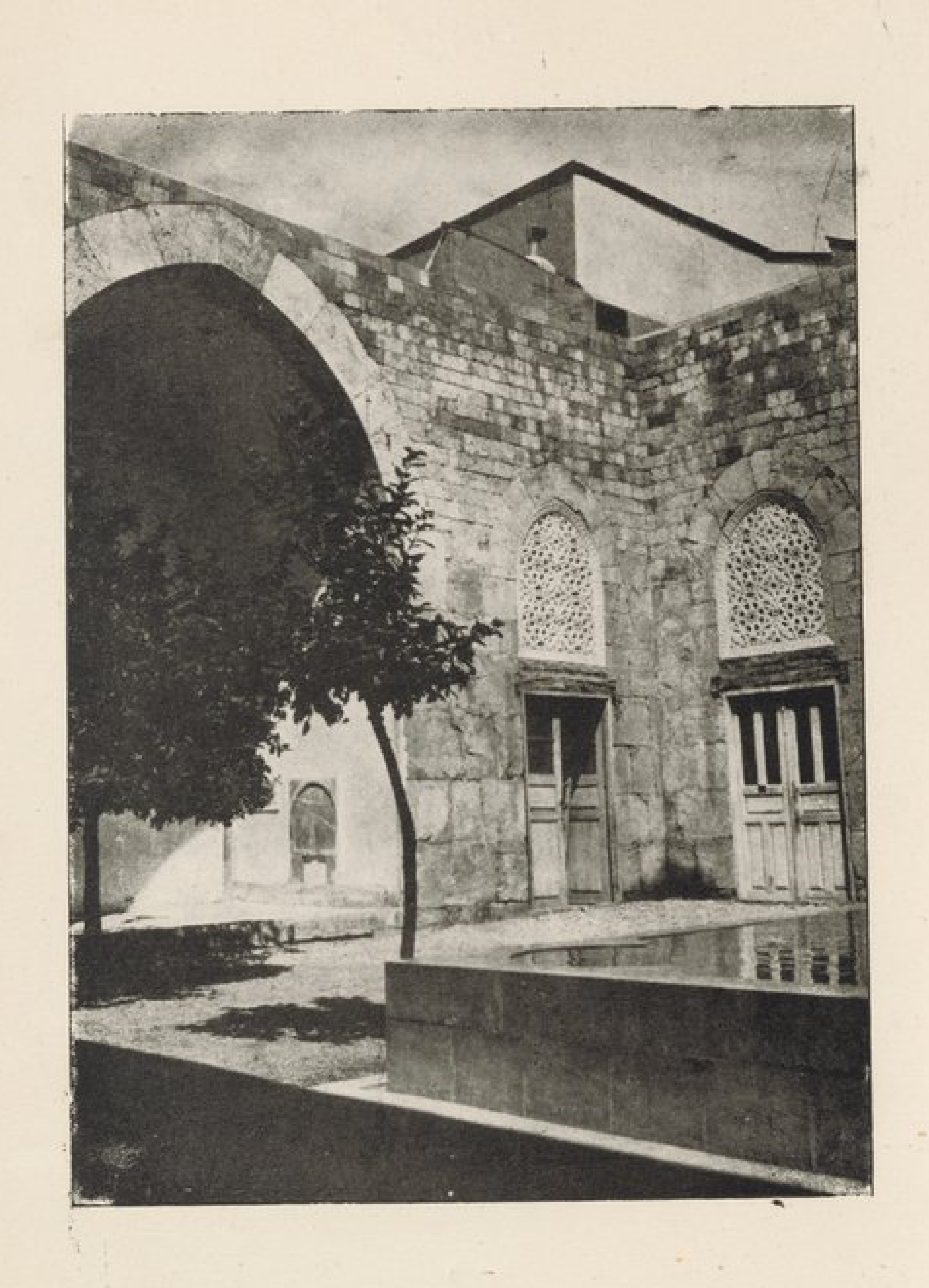
(اللوح ٢٠)

بيمارستان نور الدين

شيد سنة (٥٤٩ هـ - ١١٥٤ م) . وكان فاتحة أعمال السلطان نور الدين بن زنكي ومن أعظم مآثره في المنشآت المدنية التي ذخر بها عهده في دمشق وقد أطنب المؤرخون في ذكره، وأفردوا الفصول الطوال في وصف بنائه وزخرفته، ونفقاته الخ . . . وله أهمية كبرى في تبيان تطور العمارة الاسلامية في دمشق خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، وتأثرها بالعناصر الفنية التي أتى بها الزنكيون من بلاد الرافدين وايران . اذ انه شيد على تخطيط ذي نظام متعامد ، وجعلت له باحة مركزية حولها اواوين، وزين بالمقرنصات.

ويدخل الزائر اليه من بابه الذي يبرز عن جداره الغربي ، وتزين المقرنصات اعلاه . وفوق هذا الباب اسكفة عليها زخارف رومانية (ويظن انها مأخوذة من احد الابنية القديمة) . وله مصراعان من نحاس مزينان بزخارف هندسية ومسامير بارزة من الخارج ، وزخارف خشبية جميلة الصنع من الداخل . ويأتي الدهليز وفوقه قبة من المقرنصات ، في جانبها نصفا قبة عليها مقرنصات اخرى . ثم تأتي الباحة ، وفي وسطها بركة . وحولها الأواوين . وكانت المعالجات الطبية تجري في الايوان الاوسط منها . اما الايوان الجنوبي ، ففيه لوح مزخرف من المرمر ، يقوم مقام المحراب . وهو مزين بنقوش جميلة ، تمثل مواضيع نباتية مختلفة . وجدرانه مزينة بافريز ومستطيلات من المرمر المطعم .

وقد رمم هذا البناء في عصور مختلفة ، وأصلحته مديرية الآثار العامة . ويرينا اللوح (٢٠) منظر باحته ، ويرى في صدرها بابان فوقهما نافذتان جصيتان بديعتا الصنع .



اللوح (٢١)

الباب الصغير

يسمى الباب الصغير أو باب الشاغور ، ويقوم في طرف السور الجنوبي مكان باب روماني قديم . وقد جدده نور الدين ، وعليه كتابة مستطيلة بالخط الكوفي تشير ان نور الدين قد رفع حق التسفير عن التجار الذاهبين الى العراق والقافلين منها .

ثم جدد مرة ثانية في زمن الايوبيين ، وعليه كتابة تذكر ان السلطان عيسى بن الملك العادل هو الذي قام بهذا العمل سنة (٦٢٣هـ) . ويظهر ان ذلك لم يكن الا دعماً لما قام به نور الدين .

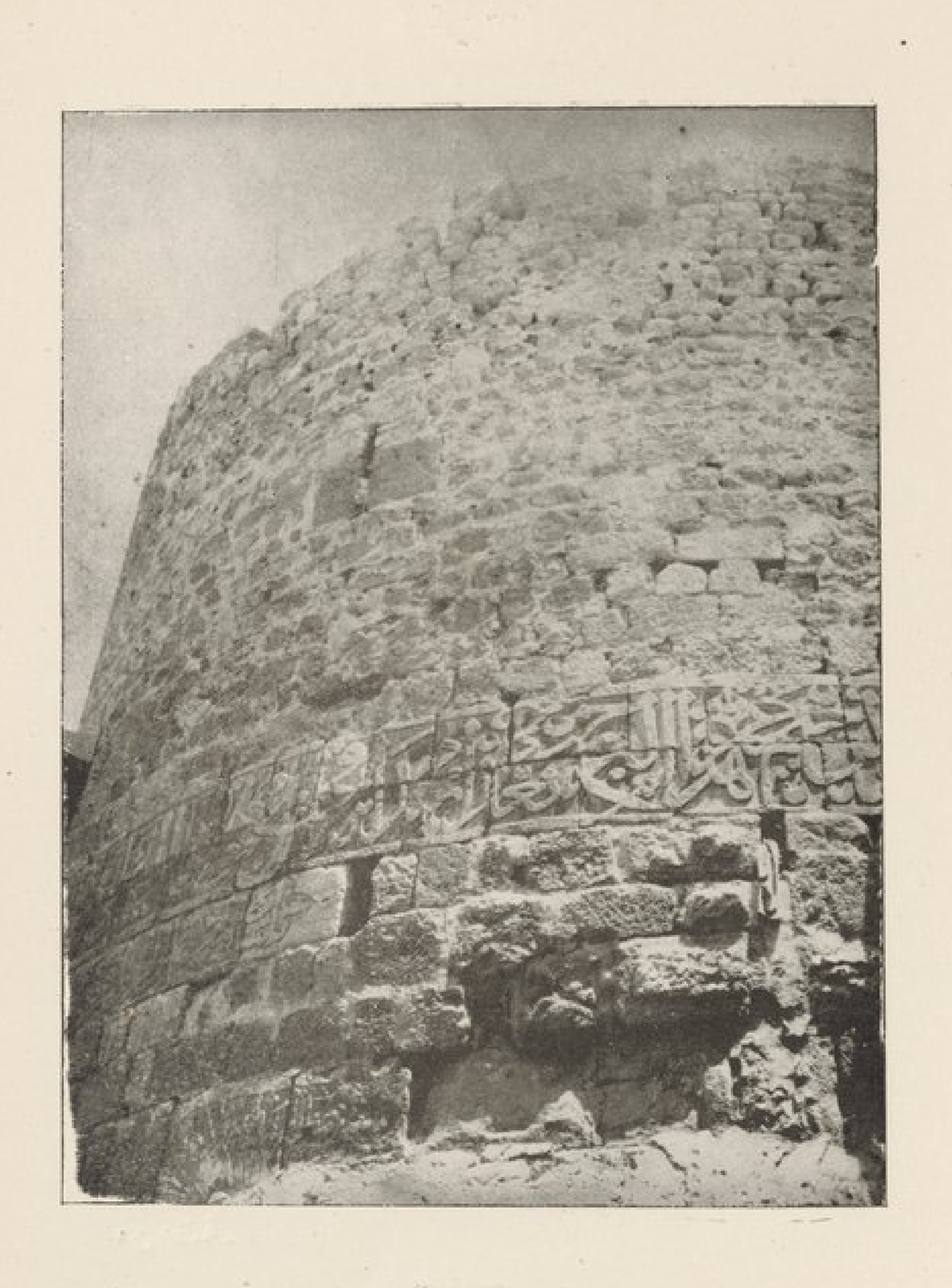
ويرينا اللوح (٢١) هذا الباب ، ويعلوه قوس مدور ، وفوق هذا القوس من الداخل قبة على شكل المهد . وله مصراعان ملبسان بصفائح الحديد المثبتة بمسامير غليظة ، يتحركان بارتكازهما على عضادتين صغيرتين علويتين ، وعضادتين سفليتين .



اللوح (٢٢)

برج نور الدين

يقع هذا البرج في الطرف الجنوبي الغربي من سور المدينة ويبلغ ارتفاع بنائه الحالي عشرة امتار . وقد بناه نور الدين سنة (٥٦٤ هـ — ١١٦٨ م) . وله قاعدة مربعة وشكل شبه مستدير . ويشبه الابراج التي بناها المهندسون المسلمون في هذا القرن متأثرين من بناء الابراج القديمة . ثم ابتكروا أشكالاً غيرها في فاتحة القرن الثالث عشر الميلادي . وهو كما يرى في اللوح (٢٢) مبني من احجار مستعملة اخذت كما يظن من سور المدينة القديم . ويلاحظ ان صفوفها السفلية اضخم من صفوفها العلوية التي جددت في زمن الملك الناصر قلاوون . كما يدل على ذلك الكتابة النسخية الجميلة المزهرة التي تزين أعلاه على شكل نطاق مستدير .



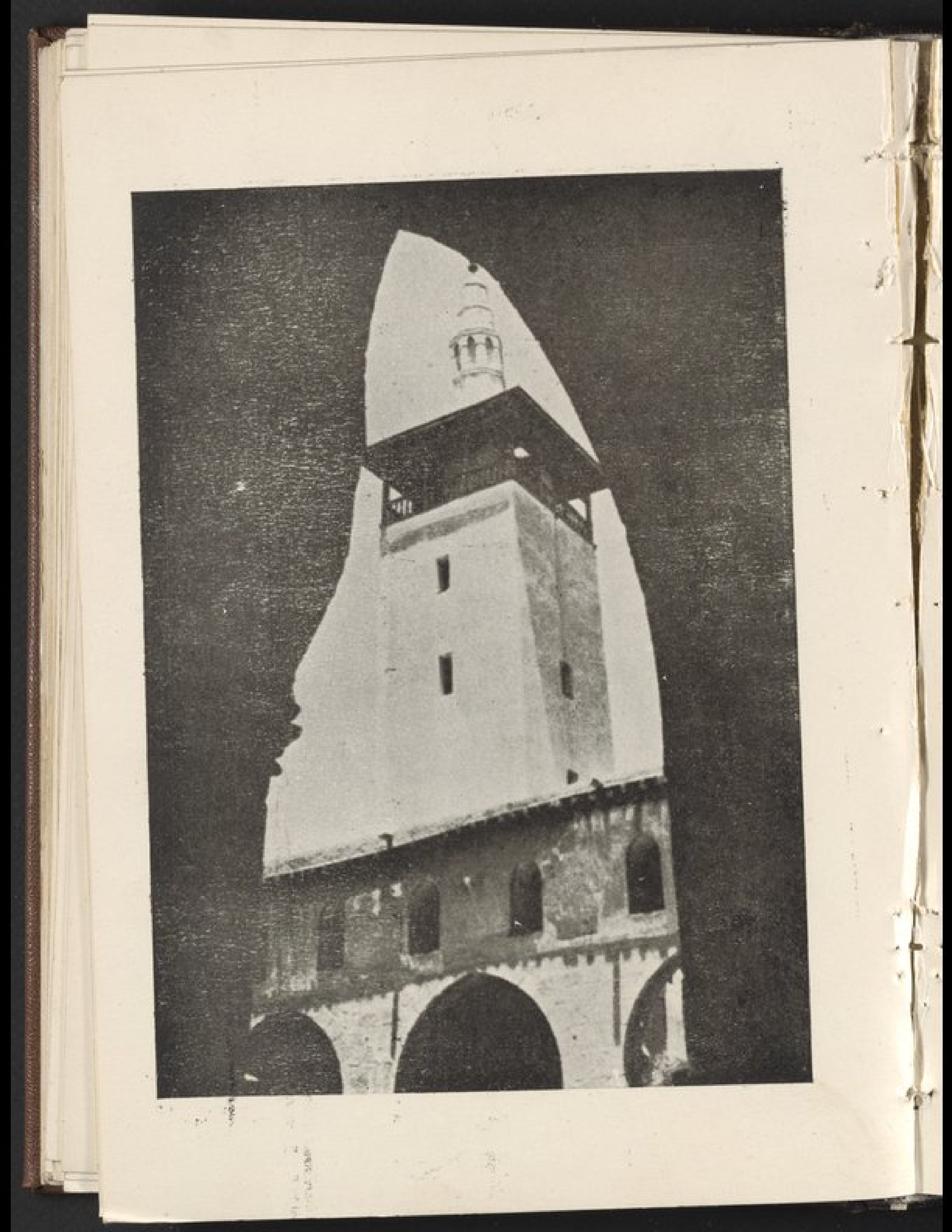
(اللوح ٢٣)

الجامع المظفّري

وهو جامع الجبل في الصالحية ويعرف باسم (جامع الحنابلة) ، أو اسم (الجامع المظفري) وقد بدأ تشييده الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة الحنبلي سنة (٥٩٨ هـ ١٢٠١ م) . ولما بلغ البناء مقدار قامة ، نفد المال ، فبلغ خبر ذلك الملك المظفر كوكبوري بن علي بن بكتكين صاحب اربل ، وزوج ربيعة خاتون ، اخت صلاح الدين الأيوبي . فأرسل مالاً لاكماله . وتشير الى ذلك كتابة منقوشة فوق باب الجامع الغربي . وقد انتهى البناء سنة(٦١٠ هـ — ١٢١٣م) وكان أول جامع أيوبي في دمشق .

ويلاحظ أن مخططه وشكله العام مستوحيان مع شيء من الاختلاف ، من مخطط وشكل الجامع الأموي . اذ أن صحنه الذي تتوسطه بركة ماء ، محاط بثلاثة أروقة محمولة على التوالي على أعمدة وركائز ، وان مئذنته على شكل برج مربع ومقامة على مدخله الشمالي ، وان له بابين في شرقه وغربه .

ويرينا اللوح (٢٣) جانباً من رواقه الشمالي ، وفوقه مئذنته ذات الجذع المربع . ويلاحظ ان الأعمدة قديمة وذات تيجان كورنثية ، وان البناء بسيط مطبوع بالوقار البسيط الذي لا يخلو من عظمة .



(اللوح ٢٤)

الجامعُ المظفّري

ويقوم حرم الجامع المظفري الى جنوبه كحرم الجامع الأموي وتبلغ أبعاده (٢٥٫٥ م × ٣١٫٥ م) . وتغطيه ثلاثة سقوف منكسرة وموازية لجداره القبلي . وداخله مقسوم إلى ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الأقواس ، محمول كل منهما على ست قوائم . وله سبعة أبواب فوق كل منها عارضة من الخشب المحفور حفراً خطياً ضامراً يشبه ماسماه هرتسفيلد (اسلوب سامراء الأول) . وفوق كل من البابين اللذين يؤديان الى الصحن نافذة جصية مخرمة تشبه النوافذ التي تحدثنا عنها لدى كلامنا عن بيمارستان نور الدين .

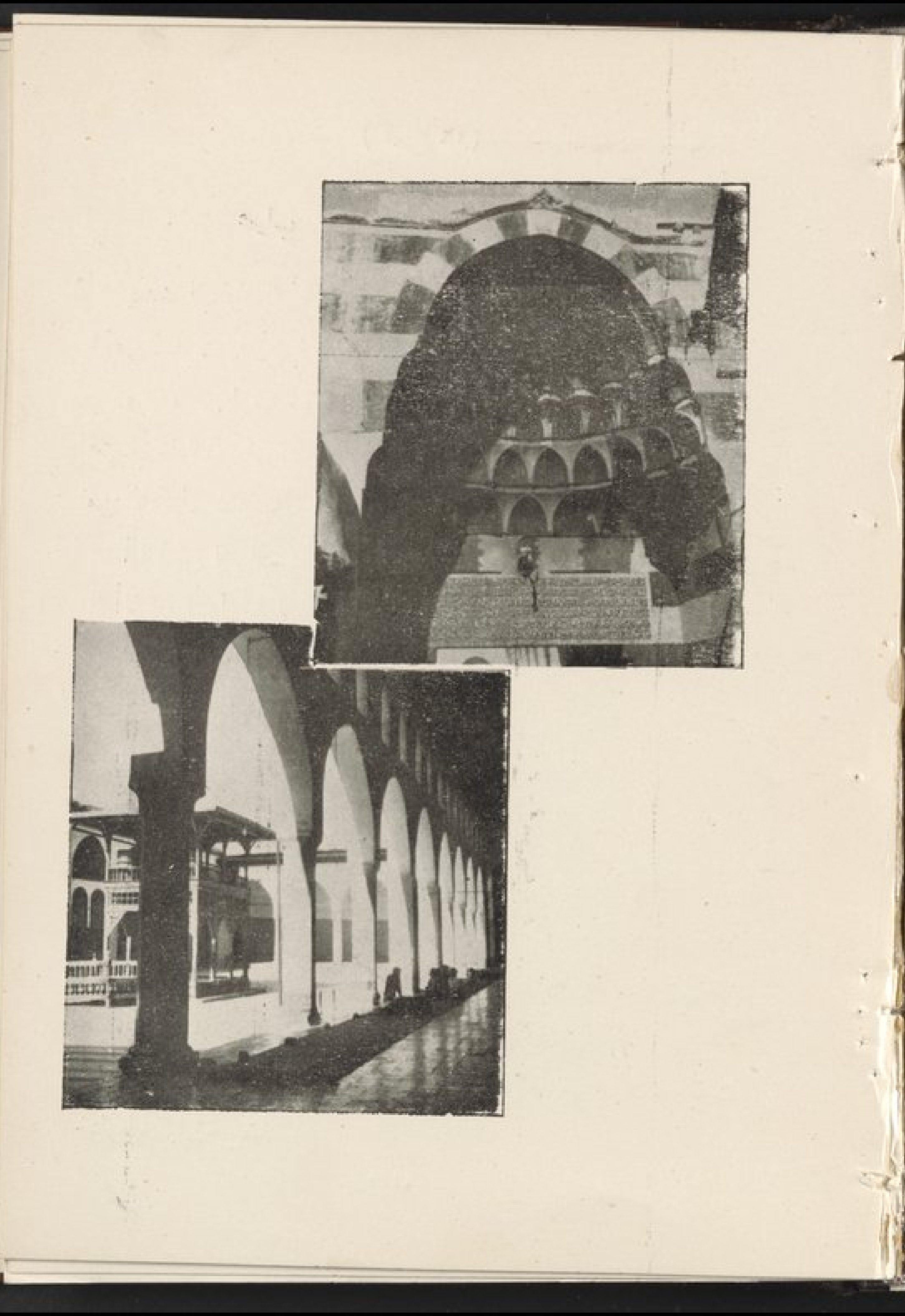
أما محرابه الذي يرى في الصورة الأولى من اللوح (٢٤) فهو من الحجر المطلي بطبقة من الأصبغة الزيتية الكثيفة . وليس له من الزخارف إلا نطاق علوي مدور مضفور ، وإطار خارجي مسنن بارز . ويحاط وسطه بعمودين عليهما تاجان . وقد أتي بهما كما يظن من كنيسة غوطية . ثم أن المنبر هدية من الملك كوكبوري كما تذكر كتابة حوله . وعليه طبقة من الأصبغة الزيتية وهو مقسم الى اجزاء ومزين بمواضيع محفورة جميلة جداً ، تختلط فيها الأشكال الهندسية بالعروق النباتية ، كما يرى ذلك في الصورة الثانية من هـذا اللوح .



جامع التوبة

يقع هذا الجامع في حي العقيبة ، خارج سور المدينة . وقد بناه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل ابو بكر ايوب سنة (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م) . بعد ان أمر بهدم خان عرف بالفجور والخواطئ كان قائماً في موقعه . ولذلك سمي جامع التوبة . وهو من اكبر جوامع دمشق . ومخططه مستوحى من مخطط المسجد الأموي . اذ ان له صحناً تتوسطه بركة ، وتطوف به اروقة محمولة على ركائز (اللوح ٢٥ الصورة ٢) وفي جنوبه حرم المسجد ويتصف أيضاً بميزات الابنية الأيوبية من حيث بساطة هندسته وجمال ترتيبه .

وقد احترق سنة (٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م) . ثم جدد تدريجياً . وله بابان احدهما في جداره الشمالي ، والثاني في الزاوية الشمالية من جداره الشرقي : وفوق هذا الباب كتابة في انشاء المسجد وأوقافه ويعلوه مقرنص جميل منشأ على ثلاثة صفوف (اللوح ٢٥ ، الصورة)



(اللوح ٢٦)

محراب جَامِعُ التَّوبَةِ

يعد محراب جامع التوبة من أجمل محاريب جوامع دمشق . وهو مصنوع من الجص المنحوت والمزين بزخارف مختلفة نباتية وهندسية وكتابية دقيقة للغاية .

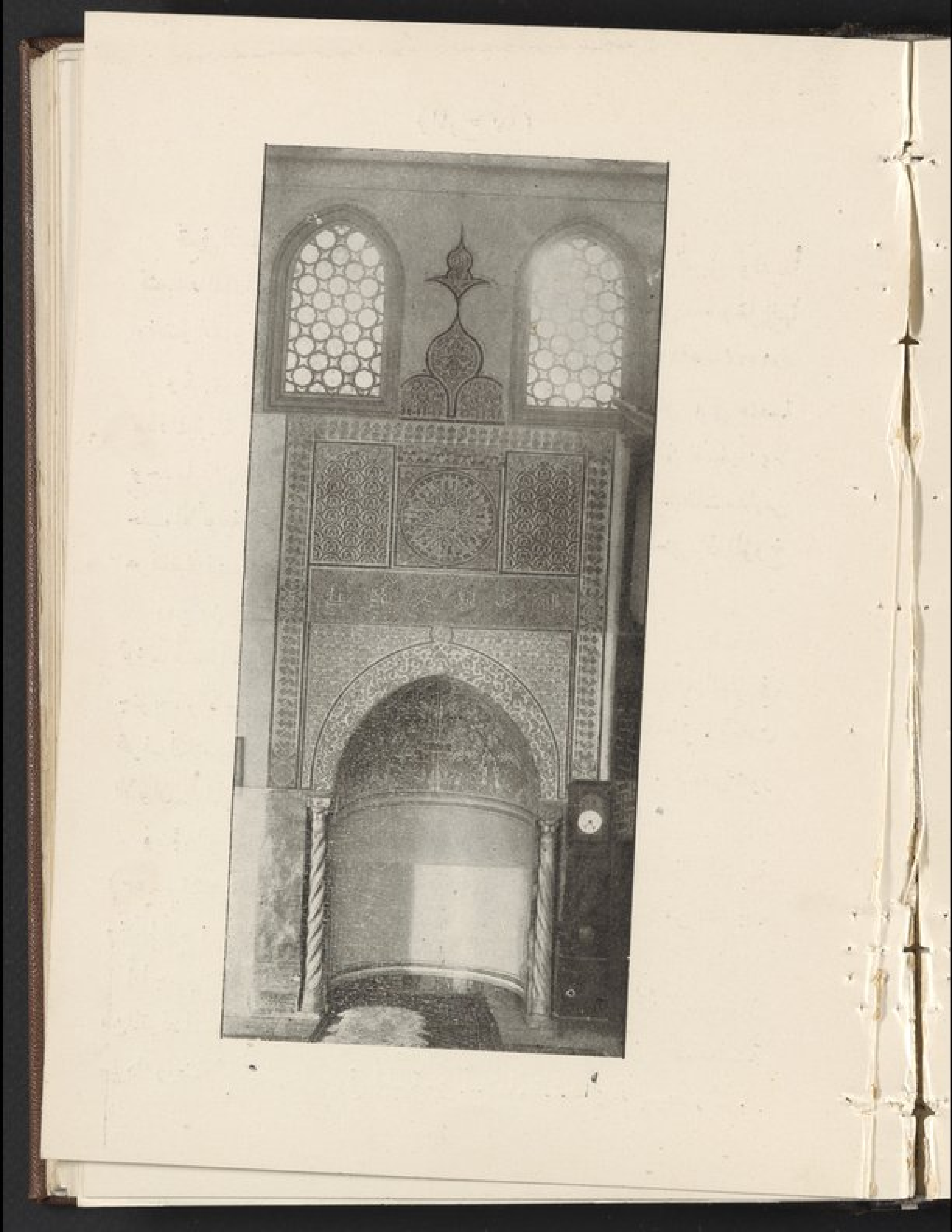
ويحده من طرفيه سويريتان مرمريتان مضفورتان . وتعلوه نصف قبة مزينة بزخارف متكررة ومتناظرة وهي محولة من عناصر نباتية إلى أشكال قريبة من الاشكال الهندسيه . وحولها اطار من الكتابات القرآنية .

أما قوس المحراب الخارجي فهو مملوء أيضاً ببعض الزخارف المتشابكة المحولة عن اصول نباتية . وعلى طرفيه قطاعان فيهما زخارف هندسية دقيقة .

ثم تأتي طبقة المحراب العلوية . وتتألف من ثلاثة مستطيلات ذات نقوش مختلفة ، وفي وسطها قلادة تمثل مثمناً هندسياً منشأ على دائرة كبيرة من كلمات الشهادة (لا إله إلا الله) ، التي تتكرر بأحرف كوفية .

وكذلك يحيط بمجموع الزخارف المتقدمة صف من الكتابات المماثلة .

وقد استوحي في إنشاء هذه الزخارف من المواضيع المختلفة التي زينت بها تربة صفوة الملك وبيمارستان نور الدين ، والمدرسة الشامية وغيرها . ولا يبعد أن تكون قد صنعت لأول مرة في زمن إنشاء هذا المسجد ، ثم جددت فيما بعد ، والدليل على ذلك ان طلاءها جديد . إذ ان العناصر النباتية جعلت على لون أخضر في أرض حمراء ، وابقيت خطوطها البارزة بيضاء .



(اللوح ٢٧)

المدرسة العادلية

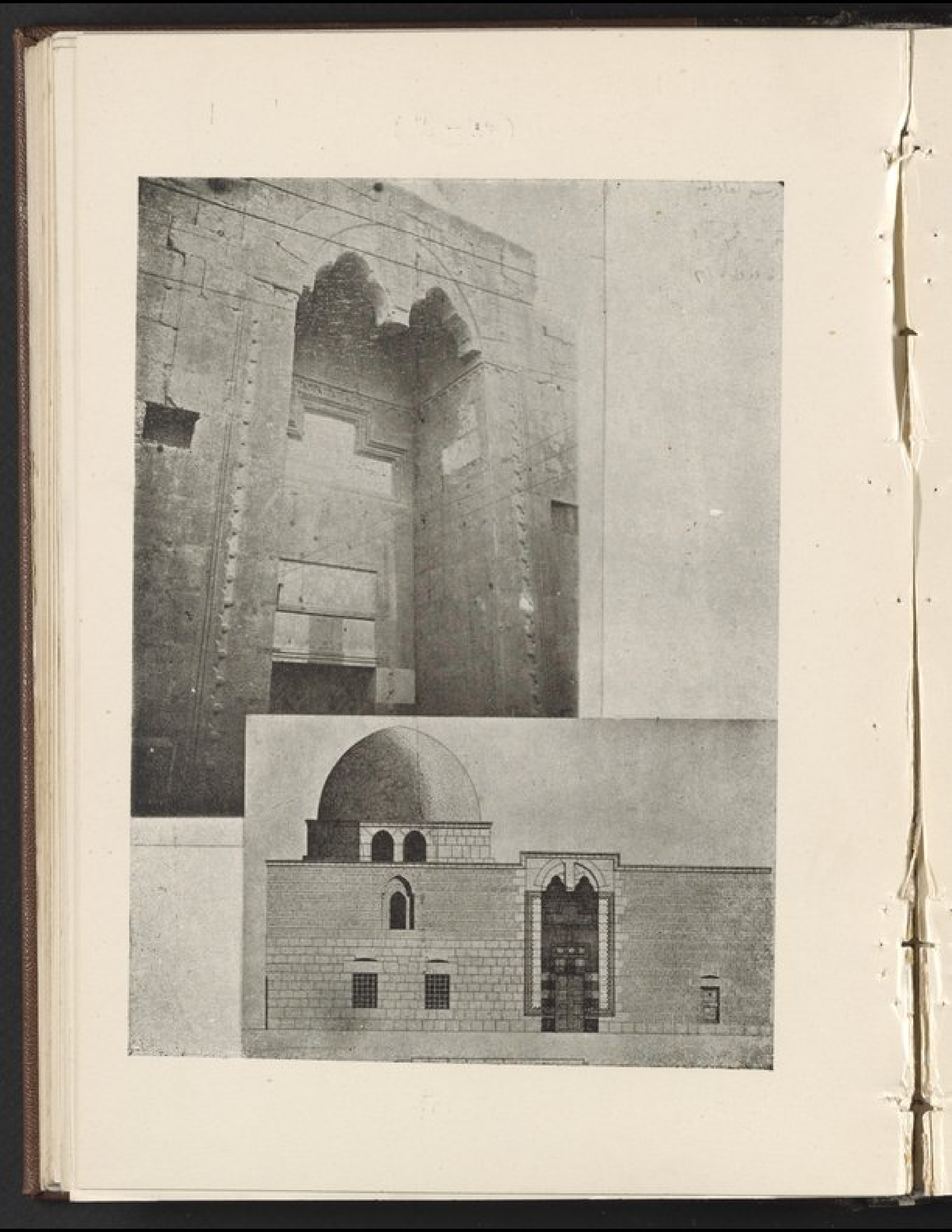
تقع في الشمال الغربي من الجامع الاموي وهي الآن دار المجمع العلمي العربي . وقد بدأ تشييدها الملك العادل سنة (٦١٢هـ = ١٢١٥م ، وأتمها ابنه الملك المعظم من بعده، ونقل إليها رفات والده . وكان قد مات قبل أن تراها كاملة عيناه، ودفن فيها سنة (٦١٩هـ = ١٢٢٢م).

وتبدى فن العمارة الأيوبية المتزنة والمتقشفة ، على أكمل شكل ، في هندسة هذه المدرسة ، وتخطيطها ، وتناسب أبعادها وبساطة زخارفها ، وحسن تنسيقها . ولا يوجد ما يماثلها في الأبنية الدمشقية إلا عدد قليل . ويشبه مخططها تخطيطات مدارس حلب الأيوبية وخاصة تخطيط المدرسة النورية الكبرى في دمشق . حتى ان المؤرخ هرتسفيلد نسب بناء المدرستين الى مهندس واحد .

ومن مزايا مخطط المدرسة العادلية أنه واضح ، وأن أقسام البناء قد وزعت فيه توزيعاً منطقياً حول محور واحد . وتقوم بركة ماء في وسط الصحن . ويقع المصلى في جنوبه ، والايوان الكبير في شماله ، وغرفة الاستاذ في غربه تجاه المدخل . وكانت غرف التلامذة في شرق الطابق الثاني وفي غربه ومكان المكتبة في المحراب من محور الايوان . أما تربة الملك العادل فانها في زاوية المدرسة الجنوبية الشرقية .

وبناؤها في معظم أقسامها من الأحجار المنحوتة نحتاً جيداً ، ذات الابعاد المتشابهة (٥٣ سم لكل منها) . وقبة التربة قائمة كأنها المصباح على قاعدة مثمنة من الخارج ، وتحتها أربع زوايا بارزة مثلثة الشكل ومزينة بالمقرنصات من الداخل .

أما جبهتها الخارجية (الصورة الاولى من اللوح ٢٧) فيزين سقفها عقدان متجاوران من المقرنصات، وتتوجه قوس ذات مفتاح حجري معلق وتحيط بالباب زخارف هندسية سوداء وبيضاء ثم تتسلق على طرفي الجبهة حتى أعلاها ، فتمنحها جمالا بسيطاً رائعاً .



(اللوح ٢٨)

المدرسة العزيزية وتربة السلطان صلاح الدين

تقع هـذه المدرسة في حي الكلاسة شمالي الجامع الاموي . وقد بناها الملك عزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي ، على أثر وفاة والده ، في قلعة دمشق ودفنه موقتاً فيها ، سنة (٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م) . ثم نقلت إليها رفاته بعد ثلاث سنوات .

واندثر بناء المدرسة ، ولم يبق منها إلا التربة المبنية حسب قواعد العمارة الايوبية . وهي مربعـة الشكل ويتوسط الباب جدارها الشرقي ، والنوافذ بقية الجدران . ويعلو البناء قبة مضلعة .

وقـد كسيت جدران التربة بألواح قيشانية يرجع عهدها الى زمن العثمانيين .





(اللوح ٢٩)

ضريح السلطان صلاح الدين

وتحت القبة في وسط البناء ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهو مرمري محدث أهداه غليوم الثاني امبراطور ألمانيا لدى زيارته دمشق . وإلى جانبه ضريحه الأصيل . وهو مصنوع من خشب الجوز ، المزين بزخارف منحوتة نحتاً جميلاً جداً . وفي أعلاه آية الكرسي مكتوبة بخط كوفي مشجر ، يمتد على شكل زنار . وعلى وجوهه الأربعة أشكال هندسية ، تتخللها زخارف نباتية ، تمثل أوراق الدوالي ، وأغصانها خارجة من أبواق الرخاء .

ويعد هذا الضريح مثالاً رائعاً لصناعة الأخشاب المحفورة في العهد الأيوبي (اللوح ٢٩) .

ويقول ابن خلكان إنه قرأ على الضريح في سنة (٦٨٠ هـ) كتابة كتبها قاضي صلاح الدين الفاضل محي الدين المعروف بابن زكي الدين الدمشقي .

وهي ما يلي بعد ذكر تاريخ الوفاة :

« اللهم فارض عن تلك الروح ، وافتح له أبواب الجنة ، فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح » .



(اللوح ٣٠)

تربة ابن المقدّم

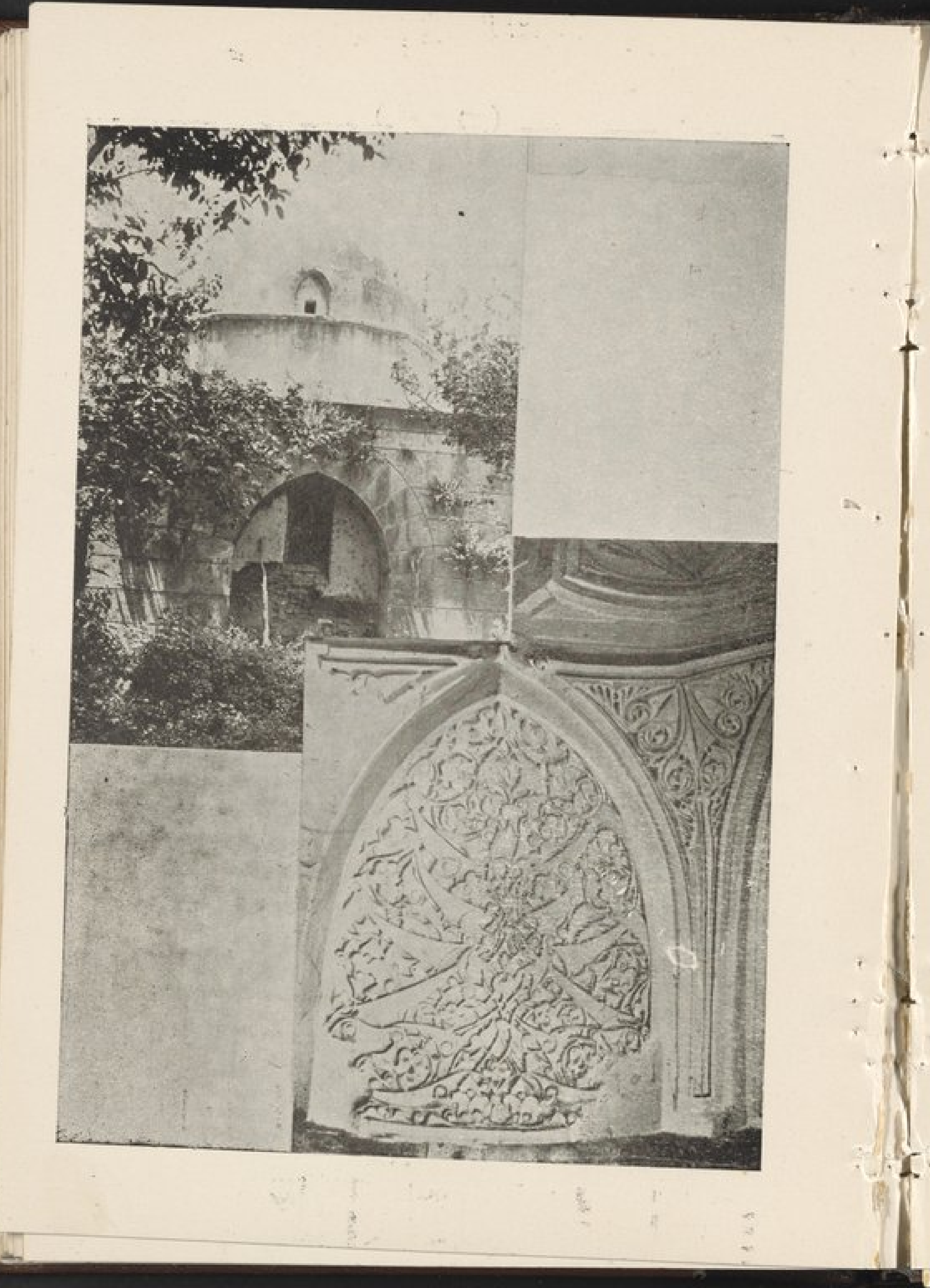
تقع شمالي السور ، وشرقي مقبرة الدحداح . ويسود العوام الاعتقاد أنها قبر الصحابي طلحة . وقد أنشأها أمير حلب فخر الدين ابراهيم ابن الامير الكبير شمس الدين ، محمد بن المقدم ، ودفن فيها سنة (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) . ثم دفن فيها أيضاً سنة (٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ م) حفيده الملك الحافظ غياث الدين شاهنشاه الأيوبي .

وهي من الطراز الأيوبي . غير ان النموذج الذي بنيت عليه لا يشبه تربات دمشق بل يقترب من أبنية حلب التي يعود عهدها الى زمن نور الدين .

ويلاحظ أن قاعدتها مشيدة من أحجار مقطوعة قطعاً دقيقاً مائلا ، وأن الجدران الأربعة التي تؤلف بناءاً مربعاً استبدلت بأقواس مفرغة ، وأن هذا المربع يتحول عن طريق حطتين لكل منهما اثنا عشر ضلعا ، الى شكل مستدير ، وهو شكل القبة المزينة بصفين من المقرنصات المطلية بالجص . (الصورة الأولى من اللوح ٣٠) . والخلاصة إن تربة ابن المقدم أقرب الى ابنية العراق الآجرية منها الى أبنية دمشق الحجرية الايوبية الأخرى .

وتمتد على أضلاع الحطتين من الداخل زخارف جصية منقوشة باتقان زائد . ويلاحظ أن مجموعة الزخارف في الحطة الأولى أكثر تعقيداً منها في الحطة الثانية . (الصورة الثانية من اللوح ٣٠) .

وقد أصلحتها مديرية الآثار العامة في السنوات الأخيرة .



(اللوح ٣١)

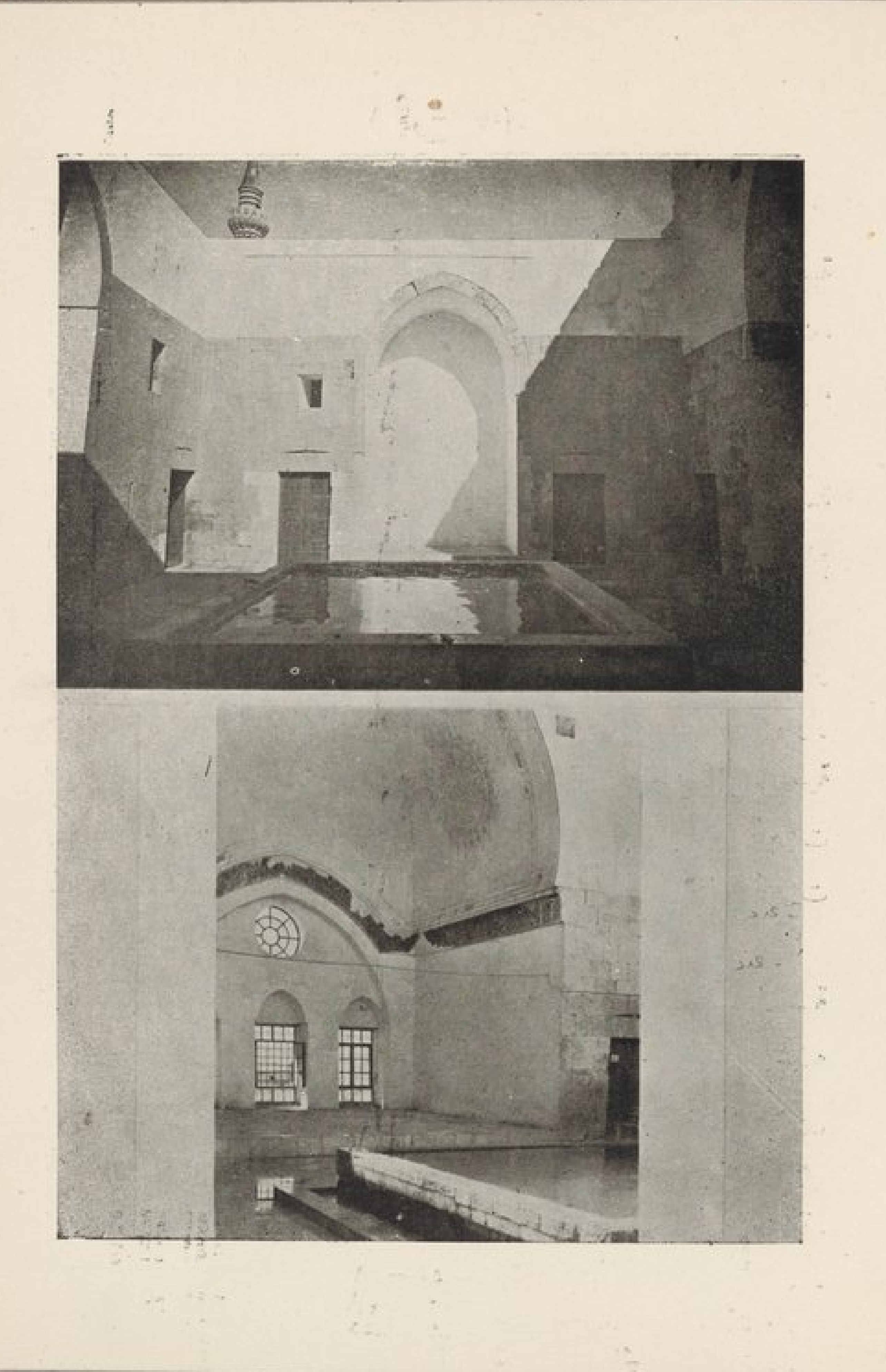
البيمارستان القيمري

يقع في الصالحية على سفح جبل قاسيون ، جانب جامع محيي الدين بن عربي .
وهو من بناء الأمير سيف الدين أبي الحسن بن أبي الفوارس القيمري ،
بين سنتي (٦٤٦ – ٦٥٧ ﻫ) وبذل فيه هذا الأمير أموالاً طائلة ، وأوقف
له أملاكاً كثيرة ، من قرى وبساتين وطواحين . وقد نقشت صيغة
الوقف في أسطر عريضة من الخط النسخي الجميل على مدخل الباب الخارجي .

ويعد هذا البناء من أعظم المنشآت المدنية الدمشقية في العصر الأيوبي .
ويختص أن مهندسه احتذى مثل البيمارستان النوري . فجعل تخطيطه على
نظام النعامد ، وأقام فيه أواوين جانبية أصغر من أواوين البيمارستان
المتقدم ، ونظم أجزاءه بصورة متناظرة ، نسبة الى محور واحد ، ونصب
له عقوداً داخلية بيضوية ومتصالبة .

أما بابه الخارجي فقد أحيط بساريتين صغيرتين ، وجعلت فوقه نصف قبة فيها
مقرنصات تشبه من جهة مقرنصات الأبنية الأيوبية ، ومن جهة ثانية مقرنصات
عمارات المماليك التي ستشيد فيما بعد ، مثل المدرسة الظاهرية وتربة قلاوون .

وفي ايوانه الرئيسي الجنوبي ثلاث نوافذ ، فوقها عقود متصالبة ، بناؤها شديد
الاتقان . ويوجد عند منشئها زخارف خطية مكتوبة بالنسخي المذهب على أساس
أزرق . وتتألف من آيات قرآنية . وفوقها زخارف جصية منحوتة تجتمع
في قلادتين ، على شكل مواضيع نباتية مختلفة . (الصورة الأولى من اللوح ٣١) .
وترينا الصورة الثانية من هذا اللوح منظر طرف الصحن مع الايوان الشرقي .



(اللوح ٣٢)

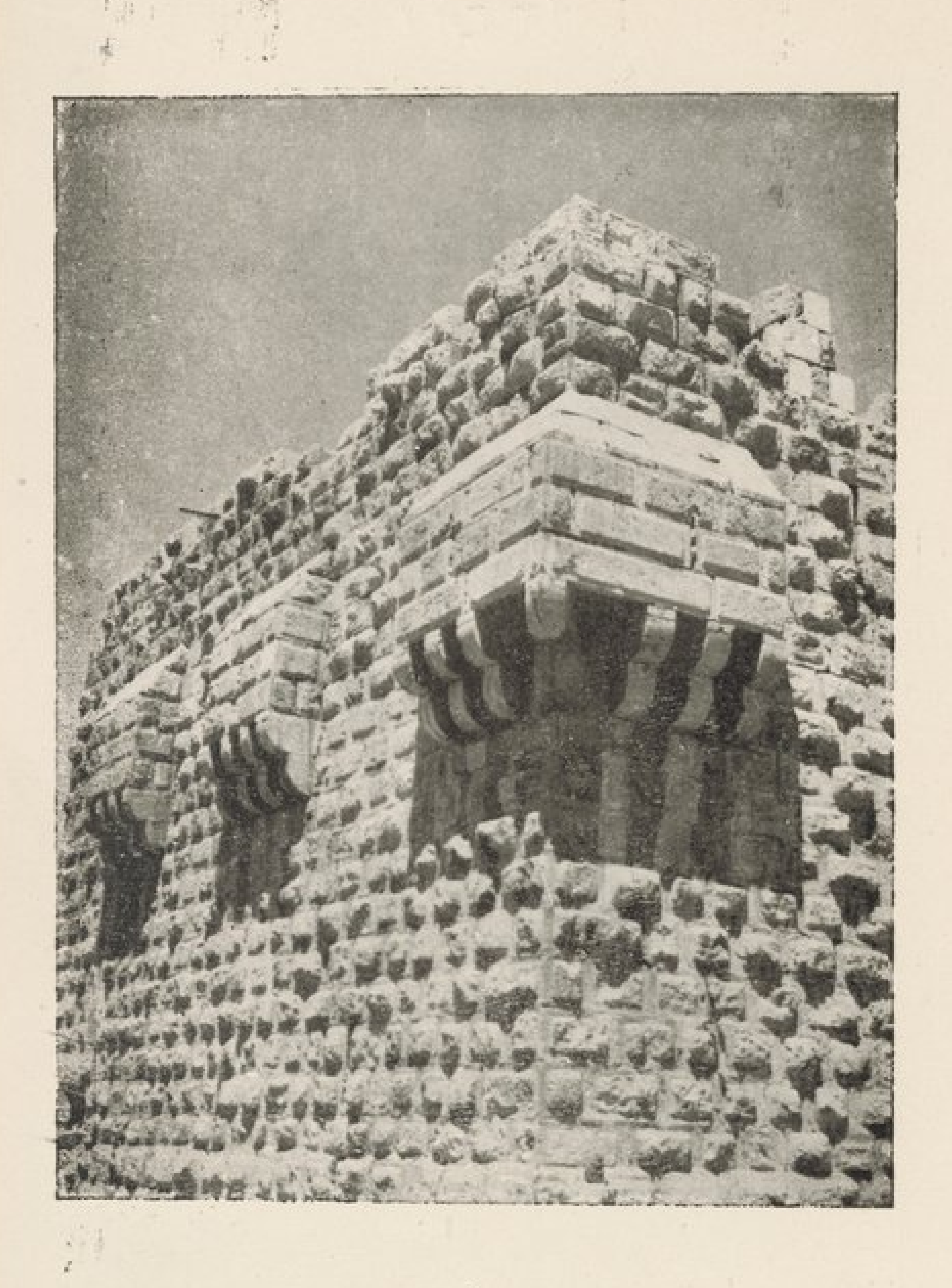
القلعة البرج الشمالي الشرقي

بنيت قلعة دمشق على سوية المدينة ، خلافاً لأكثر القلاع الاسلامية المعاصرة ، كقلاع حلب وشيزر وحماة وحمص التي شيدت على بعض المرتفعات . ويقال إنه كان يوجد في مكانها خلال الأزمنة السابقة حصن بيزنطي وروماني . غير أن المؤرخ سوفاجه نفى مؤخراً وجوده .

وكنا رأينا كيف أن السلجوقيين كانوا أول من فكر ببناء هذه القلعة لتحصين دمشق . ولما حكم الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، هدم القلعة القديمة وبدأ تجديد بنائها منذ سنة (٦٠٥ هـ = ١٢٠٦ م) .

وشكلها مستطيل تقريباً ، مساحته (٢٢٠ م × ١٥٠ م) . ولها اثنا عشر برجا ، يبتعد كل منها عن الآخر ثلاثين متراً . وكانت تتصل ببعضها بأسوار مرتفعة ، سمكها (٤٠، ١ م) . وقد استخدمت مقراً لحياة دمشق السياسية والادارية . وكان في جنوبها الغربي قصر لم يبق منه إلا بعض الحجرات المتتابعة المسقوفة بالقباب . ويظن أن قاعات الاستقبال كانت أمام هذه الحجرات كما تدل على ذلك بعض الآثار .

ويرينا اللوح (٣٢) برجاً في الشمال الشرقي ، بناه الملك العادل سنة (٦٠٦ هـ) . وهو من أعظم الأبراج ولم يزل بناؤه في حالة جيدة . وشكله مستطيل (٢٣ م × ٢٦ م) . وارتفاعه الحالي (١٨ م) . ويشتمل داخله على ثلاثة طوابق ، في كل منها خمس كوات لرمي السهام . وسطح البرج الخارجي محاط من أعلاه بشراريف الدفاع ، وفوقها كلها كوات مستطيلة أخرى مسننة .



(اللوح ٣٣)

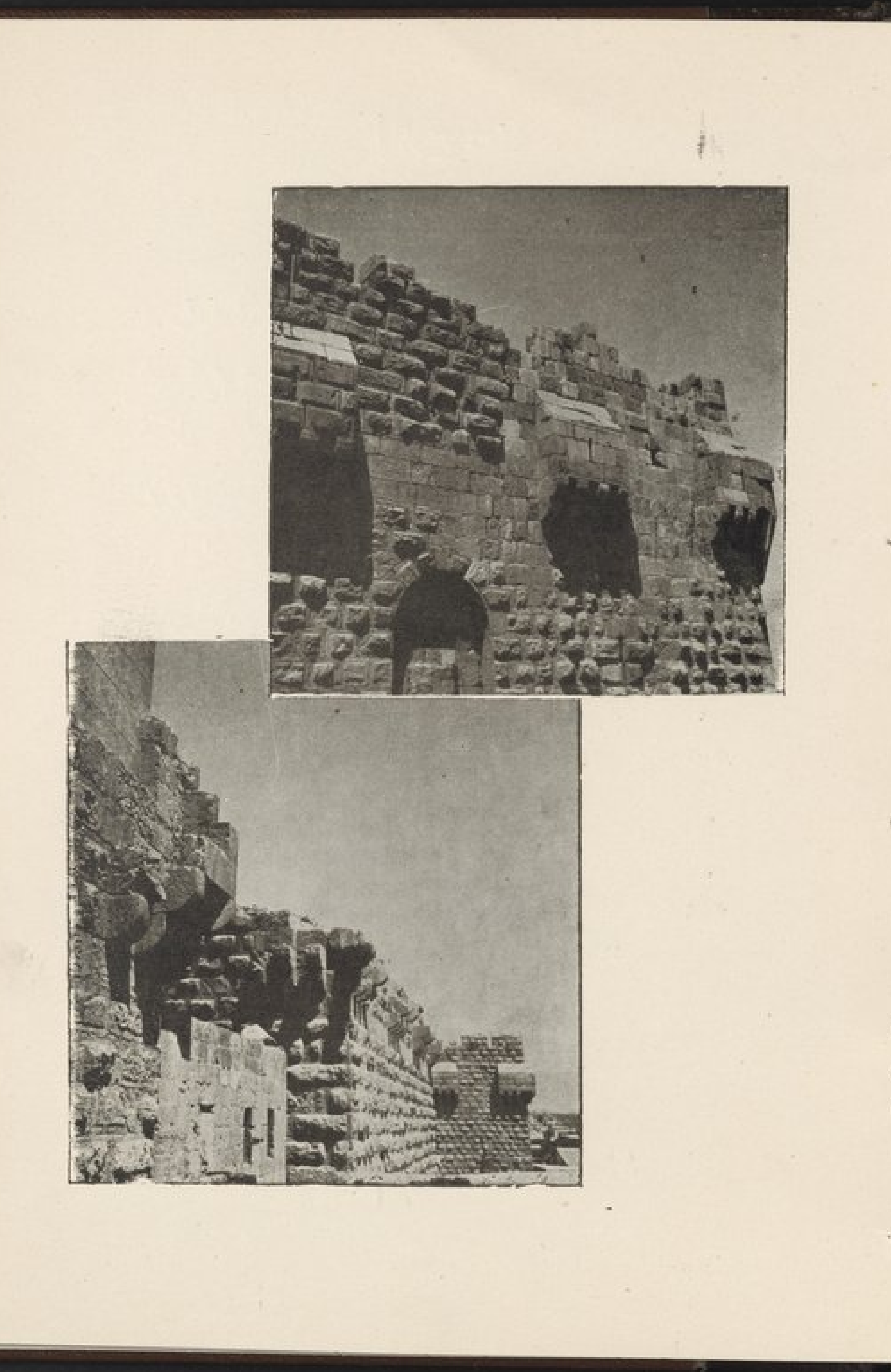
قلعة دِمَشق - الأبراج الشرقية

يرينا هذا اللوح منظراً آخر للبرج المتقدم من الجبهة الشرقية، كما يرينا منظراً ثانياً لطرف القلعة الشرقي . ويحوي في وسطه برجين كبيرين، يحيطان بباب القلعة الشرقي، الذي تزينه زخارف منحوتة ومقرنصات بديعة جداً .

أما السور الغربي فلم يبق شيء من آثاره . وأخيراً فان السور الجنوبي هو أحسن الأسوار محافظة على شكله القديم، وأكثرها انسجاماً واتساقاً .

ويظهر من بعض تفاصيل العمارة والنحت في قلعة دمشق أن هذه القلعة قد احتذي في بنائها نماذج التحصينات العسكرية الأيوبية، التي ظهرت في سورية الشمالية . مما دعا المؤرخ (سوفاجيه) أن يقول إن الملك العادل استحضر بعض البنائين والمهندسين من حلب ليساهموا في تشييدها .

ورممت بعض حصون هذه القلعة وأسوارها، أو أعيد انشاؤها عدة مرات، منذ زمن بنائها حتى أول القرن السادس عشر . فقد جدد الملك الظاهر بيبرس عدة حصون في شمالها وجنوبها . وأصلح السلطان قلاوون بعض ابراجها الشرقية والقصر الملكي . وعمل ابنه الناصر ومن بعده نوروز الحفيظي وقنصوه الغوري أيضاً في إصلاح عدة مواضع من السور والابراج .

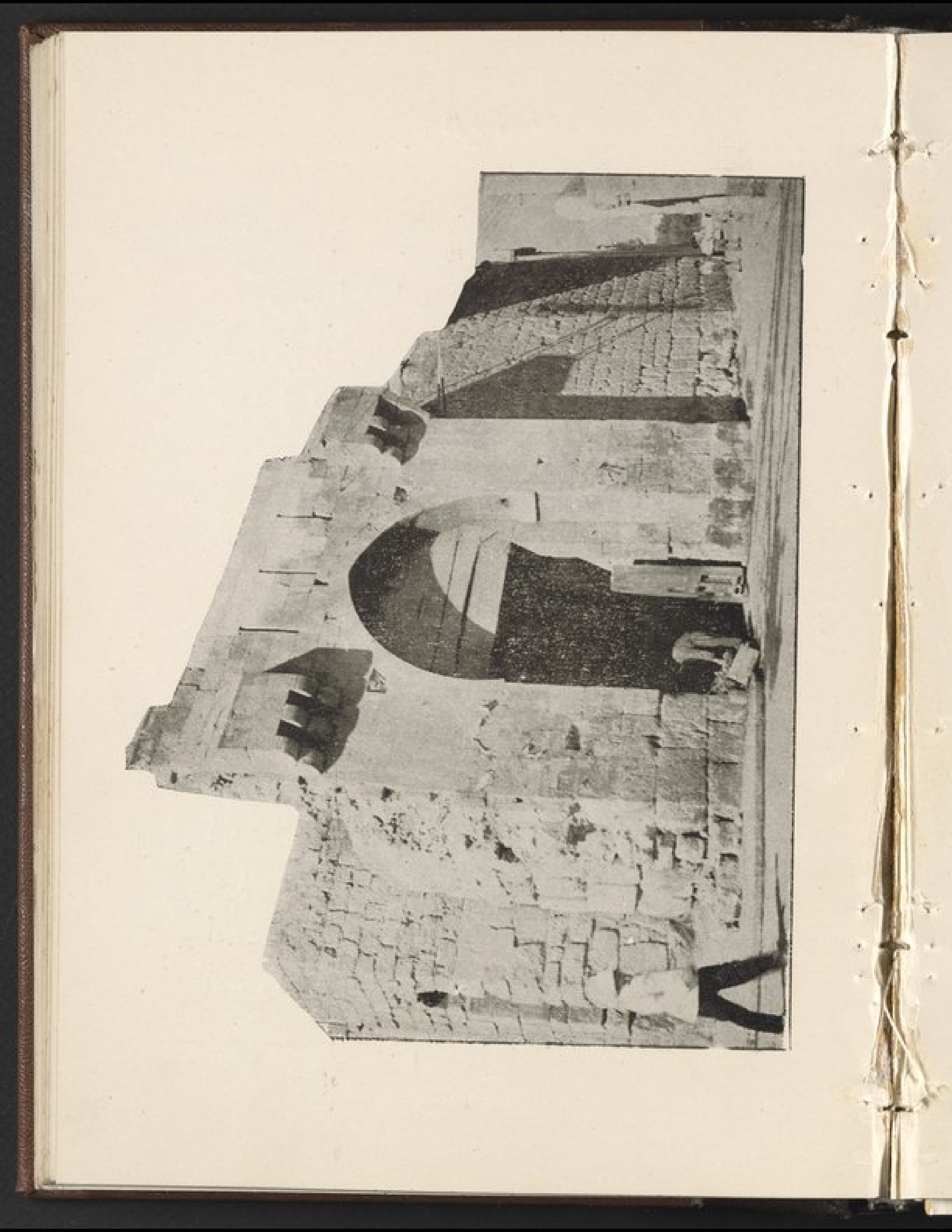


(اللوح ٣٤)

باب توما

يقوم في الجبهة الشمالية الشرقية من سور المدينة ، مكان باب قديم يعود عهده الى العصر الروماني . وقد اعيد بناؤه على شكل جديد في زمن الملك الناصر داوود ابن الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة (٦٢٥ هـ - ١٢٢٨ م) . كما تشير الى ذلك كتابة في داخله . وجدد في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون باشارة الأمير (تنكز) نائب الشام، في سنة (٧٣٤ هـ - ١٣٣٣ م)، كما تنص على ذلك كتابة عتبة الباب من خارجه .

وهو نموذج من نماذج المنشآت العسكرية الأيوبية التي تقدم صنعها تقدماً مدهشاً ، في أول القرن الثالث عشر الميلادي . ويرى في اللوح (٣٤) قوسه المجزوء، وشرفتاه البارزتان اللتان لهما دور عسكري وتزيني معاً ، وبينهما كوات الدفاع المستطيلة . اما طبقة الباب العلوية فهي مهدمة ومصلحة .



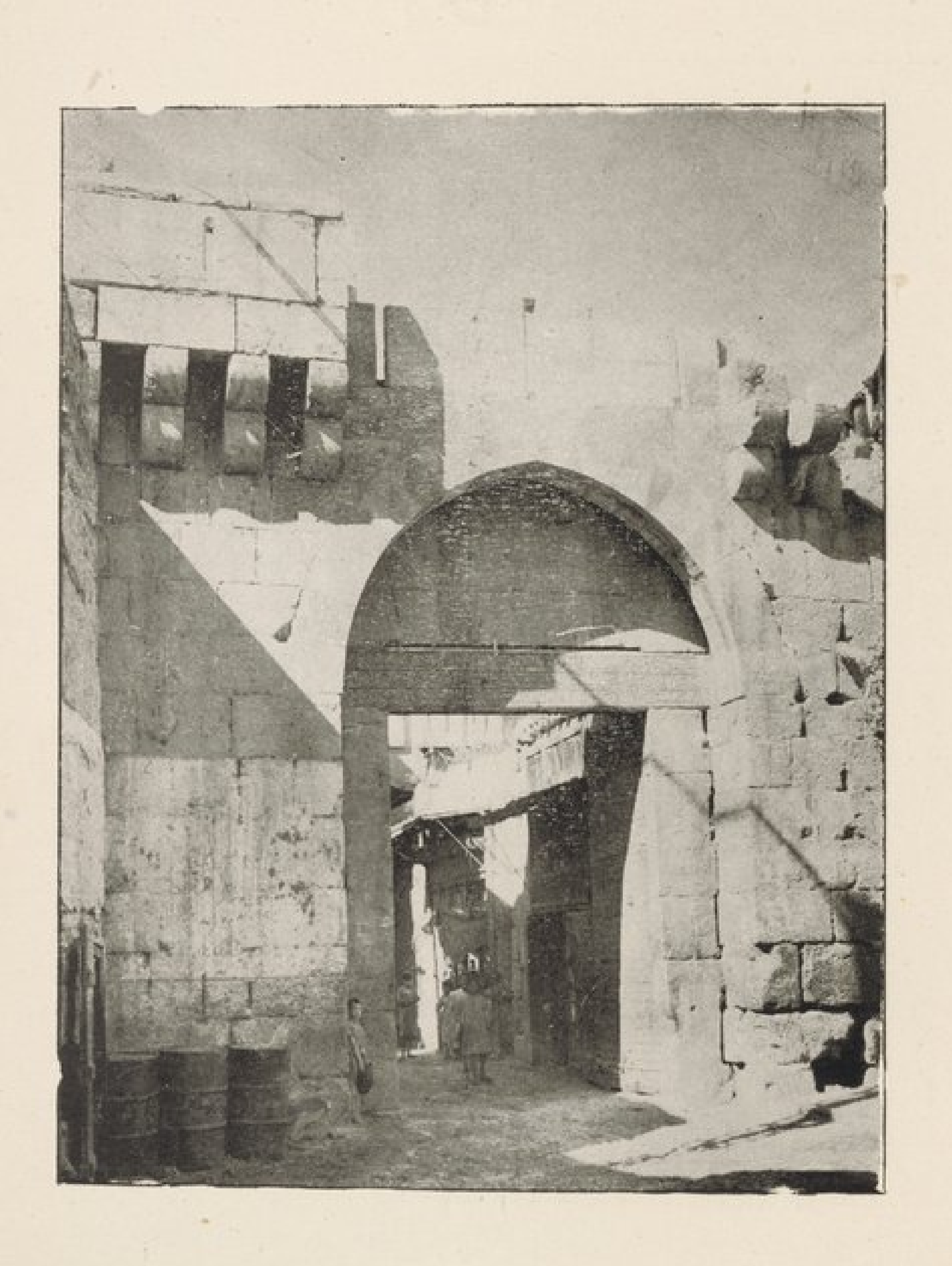
(اللوح ٣٥)

باب السّلامة

وهو من أبواب دمشق الشمالية ، ويقوم في منعطف من السور ، يجعل اتجاهه نحو الشرق . ويقول ابن عساكر مؤرخ دمشق في تسميته :

« سمي بذلك تفاؤلا ، لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته ، لما دونه من الأنهار والأشجار » .

ومن المؤكد أنه لم يكن في مكانه باب آخر في العهد الروماني . ولا يبعد أن يكون قد بني لأول مرة في زمن نور الدين . وقد جدد بناؤه كله في زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . سنة (٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) . وعلى عتبته من خارجه كتابة تشير الى ذلك . وهو ثاني باب أيوبي انشىء بعد باب توما ، ويشبهه بقوسه وكواته وشراريفه . ويمتاز عنه أنه لم يرمم في زمن المماليك . ولم يزل في حالة جيدة وقد أعادت مديرية الآثار العامة كواته المتهدمة في السنوات الأخيرة .



(اللوح ٣٦)

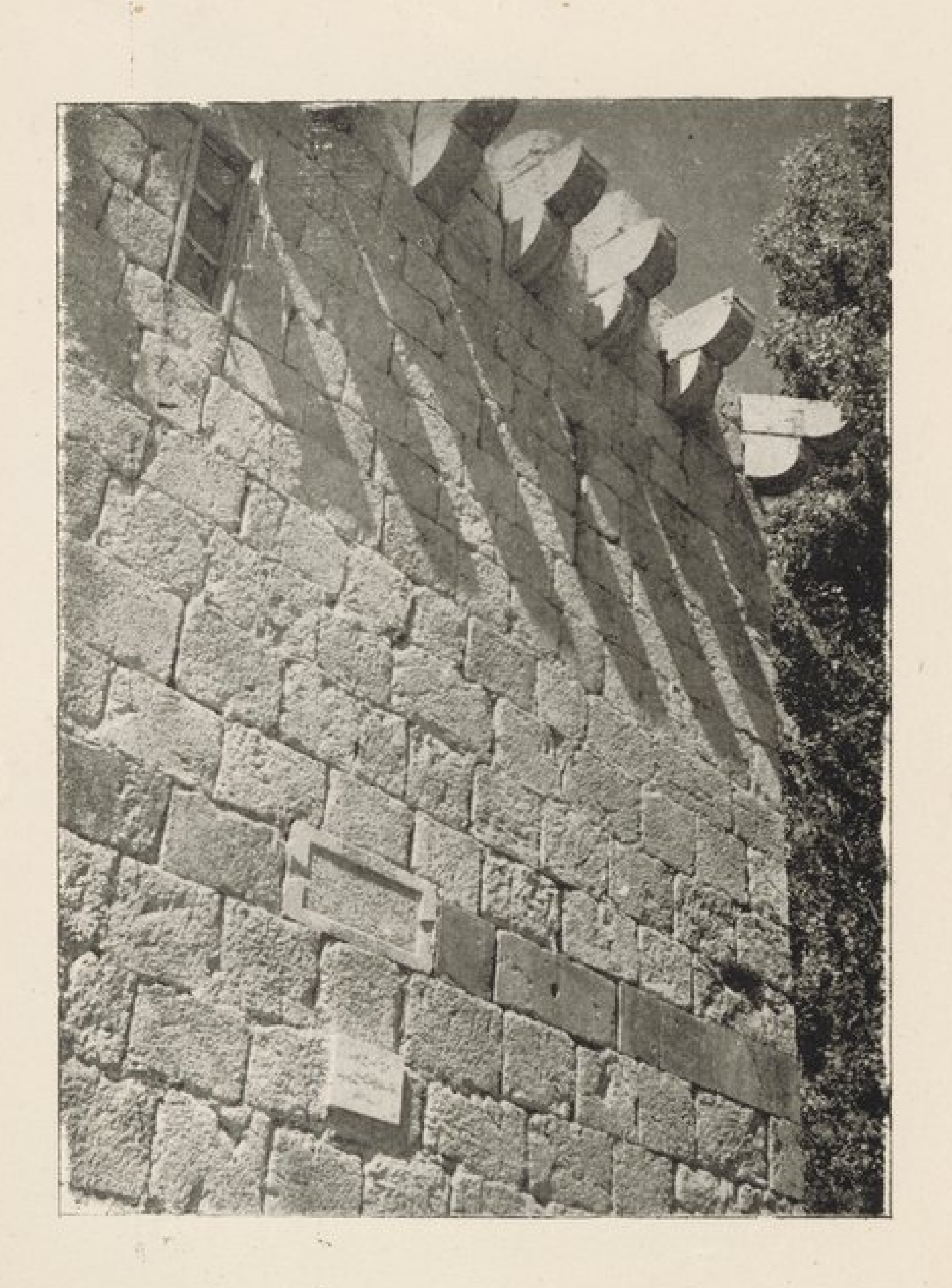
برج الصالح أيوب

يستند هذا البرج على الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، ويصل سورها الشرقي بسورها الشمالي .

وقد أنشأه الملك الصالح أيوب سنة (٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) كما تشير الى ذلك كتابة بالخط النسخي على قطعة من المرمر داخل اطار في جبهته الشمالية .

وشكله مربع . وهو يعد نموذجاً من نماذج الأبراج الايوبية الدمشقية . وقد استوحى في بنائه من أشكال وتخطيطات أبراج القلعة التي سبقته . ويختلف عنها ببعض التفاصيل . ومنها أن الوجوه الخارجية لأحجاره ملساء وغير بارزة . وهذه الأحجار منحوتة نحتاً جيداً ، وما تزال محافظة تماماً على شكلها القديم .

وكانت توجد عليه شرفات متصلة لم يبق منها الآن إلا مساندها المعلقة فوق كواة الطابق المتوسط .

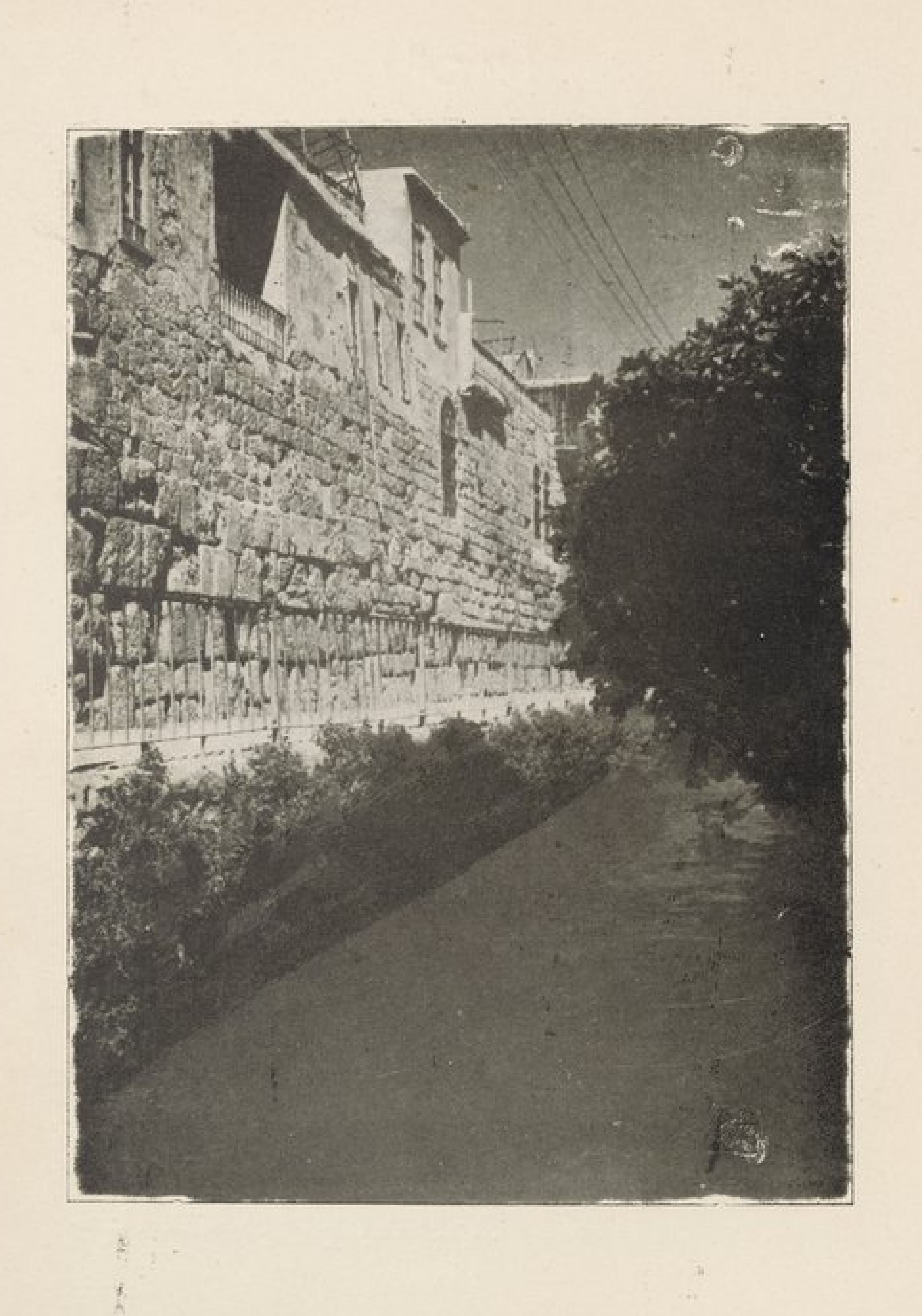


(اللوح ٣٧)

السّــــور

هدم العباسيون سور دمشق حجراً حجراً في القرن الثامن الميلادي . وأعاد الفاطميون بناءه في القرن العاشر أول مرة ، ونور الدين مرة ثانية . وقد حيد هذا السور عن تخطيطه الأصلي الذي كان له في العصر الروماني . وذلك رغبة في دعمه ، وجعله متفقاً مع اتساع المدينة وامتدادها . ثم رممه الأيوبيون وجددوا تحصيناته ووسعوه خاصة الى جهة الشمال ، وجعلوه يحاذي فرع بردى الاصلي ، بدلا من أن يحاذي كما كان الأمر في زمن الرومان نهر عقربا الذي لم يعد يجاريه إلا بعد باب السلام (اللوح ٣٧) .

ولما أتى المماليك ثم العثمانيون ، قاموا كذلك باصلاح ما تداعى من منشآته . واذا كنا لا نتمكن اليوم أن نعين بوضوح تام ، المراحل المتعاقبة التي مر بها ، منذ تحوله عن تخطيطه المستطيل القديم الى تخطيطه المتعرج الحالي ، فاننا نستطيع أن نبين تاريخ بناء كل جزء من أقسامه الباقيـة . فصفوف أحجاره السفلية الضخمة التي أخذت من السور القديم ، عهدها قبـل القرن الثاني عشر . وصفوف الأحجار التي تليها والتي يتراوح ارتفاعها بين (٥٠ — ٦٠ سم) من زمن نور الدين وزمن الأيوبيين . ومداميك الأحجار الصغيرة ذات الابعاد (٢٠ — ٣٠ سم) من عهد المماليك . أما بقية الأحجار العلوية غير المنحوتة فقد وضعت بعد الفتح العثماني .



(اللوح ٣٨)

جامع تنكز

يقع هذا الجامع غربي سور المدينة في شارع النصر اليوم. وقد بدأ تشييده الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطان في الشام في سنة (٧١٧هـ = ١٣١٧ م). وانتهى منه بعد سبع سنوات ودفن فيه. وكان من أكبر جوامع دمشق.

وقد تجلت في بنائه أصول فن المماليك في العمارة، التي امتزجت بتقاليد العمارة الايوبية، وظلت سائدة في دمشق مدة طويلة . إذ أن صحنه كان واسعاً ومحاطاً بالأروقة ويشقه نهر بانياس. وكذلك حرمه فانه مستطيل الشكل، ومقسوم الى ثلاث بلاطات طولانية، بواسطة صفين من القناطر محمولين على عدد من الأعمدة. ويتصل بالصحن بثمانية أبواب. وله محراب في صدر جداره الجنوبي لم يبق إلا جزء من فسيفسائه، التي تغطيها بعض الألوان اليوم (الصورة السفلية من اللوح ٣٨).

وشعار الأمير تنكز مرسوم في أعلى بابين من أبوابه.

اما جبهته فهي تقع الى جنوبه، وهي واسعة ومبنية من صفوف من الاحجار السوداء المتعاقبة، مع صفوف أخرى من الاحجار الصفراء حسب قواعد فن المماليك. وفيها بابان صغيران ينفذ منهما الى الحرم، وبابان جانبيان كبيران يؤديان الى الصحن وتعلوهما قبتان من المقرنصات ذات الاسلوب المبتكر.

وللجامع منارة في جداره الشمالي. وقاعدتها مربعة، وجذعها مضلع. وفيها زخارف قاشانية زرقاء، ونقوش ومقرنصات مختلفة (الصورة العلوية من اللوح ٣٨).

وقد احترق هذا الجامع سنة ١٩٤٥ . وقسم صحنه، وظهرت فيه أبنية حديثة، أفقدته كثيراً من روعته الماضية.



جامع التيروزي

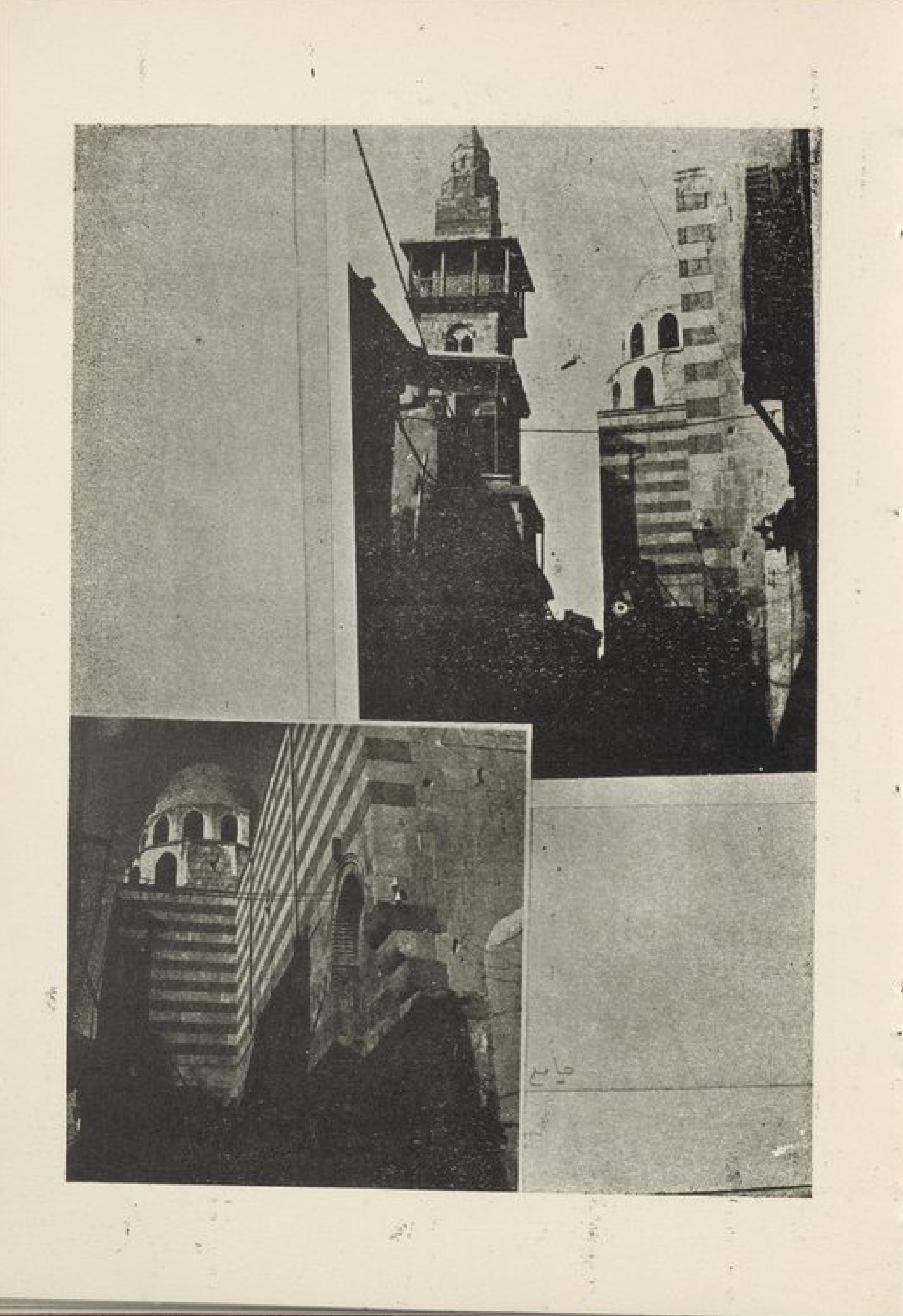
يقع هذا الجامع في رأس الشويكة ، شمالي قبر عاتكة ، وقد شرع بانشائه الأمير غرس الدين خليل التوريزي حاجب حجاب دمشق في سنة (٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ م) . وأضيفت إليه مئذنة بعد تسع سنوات .

ويلاحظ فيه أن بناته تحرروا من قواعد الفن الأيوبي التي سادت العمارات الدمشقية أكثر من نصف قرن . واتبعوا أصول فن المماليك الذي ازدهر خاصة في القاهرة ، واتخذوا في ذلك عناصر جديدة في التخطيط والبناء والزخرفة .

فتخطيطه يختلف عن سائر تخطيطات الجوامع الدمشقية التي سبقته ، إذ أنه ليس له صحن واسع . وواجهته مبنية من أحجار ذات لونين مختلفين . وفي طرفها الغربي مزولة تحت قنطرة بديعة (الصورة الثانية من اللوح ٣٩) .

أما مئذنته فهي من أجمل مآذن دمشق ، وشكلها مربع ، على حين أن كل مآذن المماليك المضلعة . وعليها زخارف جميلة كثيرة ، منها كتابة تاريخية . وبينها وبين الجامع طريق .

وتتوسط تربة الواقف جرياً على سنة المماليك جداره الشمالي تجاه المحراب . ولها قبة عالية مستندة . على حطتين مضلعتين ، وفي كل ضلع كوة . وجدرانها مكسوة بألواح القاشاني المصنوع في دمشق ، والذي بدأ دوره في تزيين الأبنية الدمشقية .


جامع

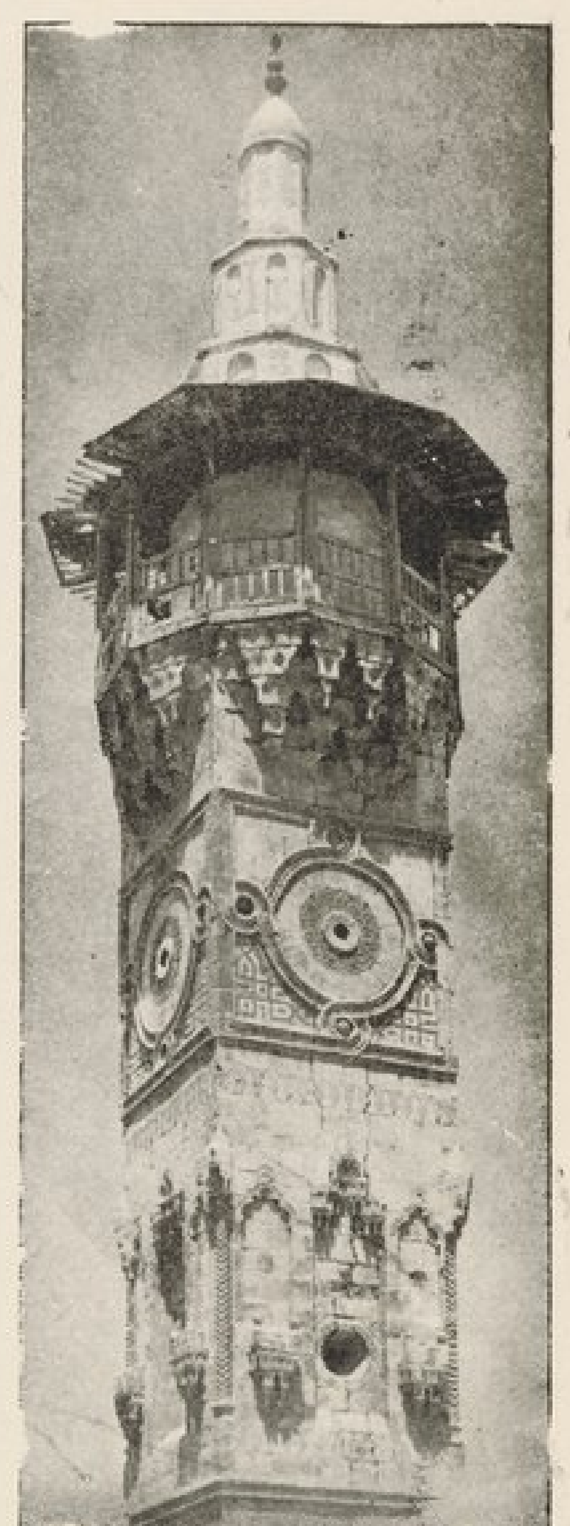
(اللوح ٤٠)

مئذنة القلعي ومئذنة هشام

تقع هاتان المئذنتان في حي الشاغور ، ويرجع عهدهما الى القرن التاسع الهجري أو الخامس عشر الميلادي . وقد بنيت الأولى سنة (٨٣١ هـ = ١٤٢٧ م) . وشكلها مضلع ، وفي وسطها كتابة منقوشة . أما الثانية فانها شيدت سنة (٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ م) . وهي مربعة ، ومزينة بزخارف مقرنصة ومطعمة بألواح القاشاني الأزرق .

وتعد هاتان المئذنتان مع مئذنة قايتباي (مئذنة العروس في الجامع الأموي) أمثلة رائعة عن فن العمارة في عهد المماليك ، وسعي مهندسيهم لتنويع تأثيرات عناصرها الزخرفية . وذلك بتنظيم مجموعات كاملة منها ، تدلنا اليوم على براعتهم وافتنانهم في صناعتهم .





(اللوح ٤١)

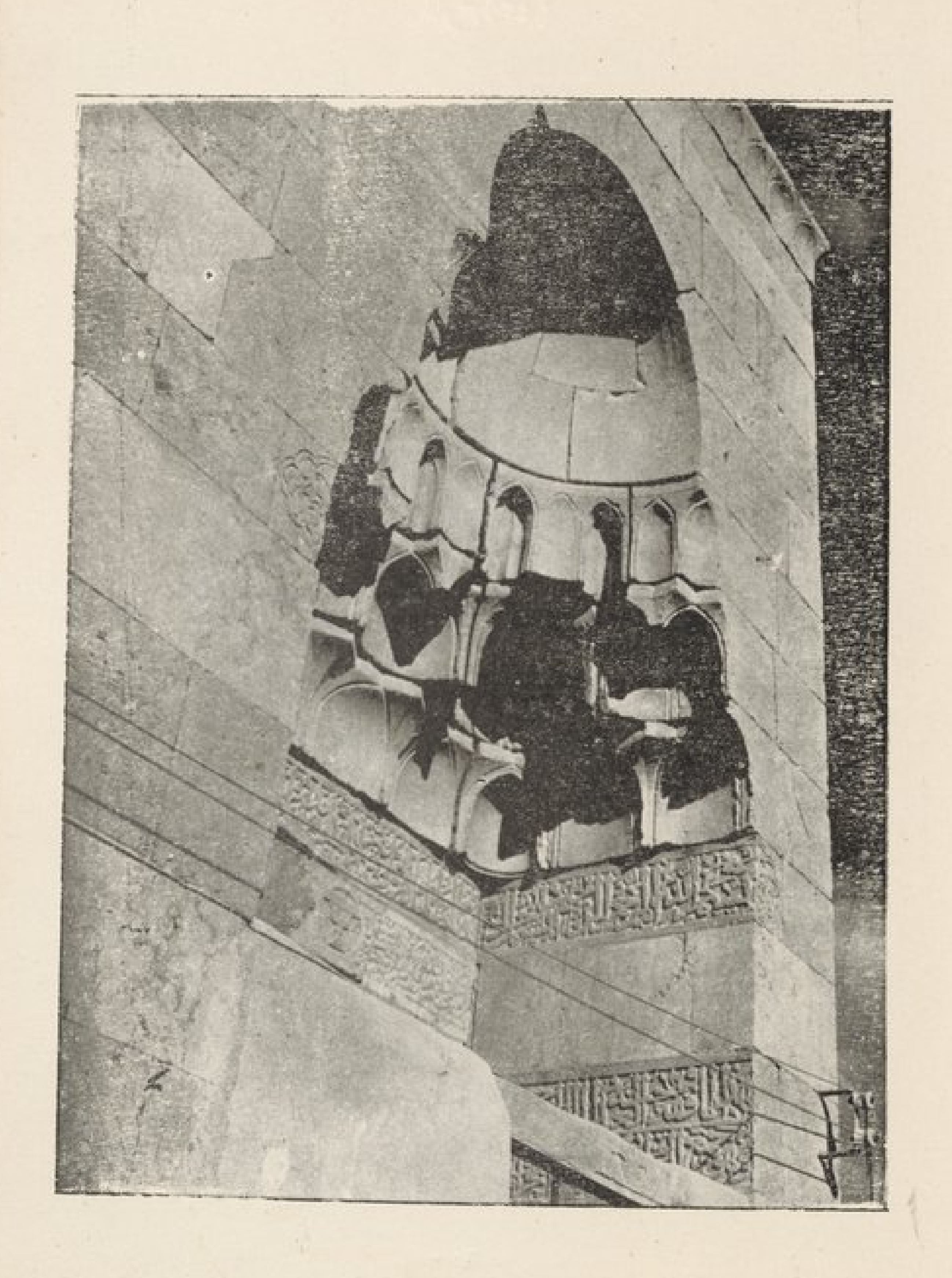
تربة الملك الظاهر

تقع تجاه المدرسة العادلية الكبرى (وهي دار الكتب الوطنية اليوم) . وقد بنيت لما قتل الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م) ودفن في القلعة . فأراد ابنه الملك السعيد بركة قان أن يخلد ذكراه . فاشترى دار العقيقي وكانت قصراً للأيوبيين . وأنشأه مدرسة وتربة . فتم ذلك في العام نفسه ، ودفنت رفات الملك الظاهر فيها . ثم دفن الملك السعيد جوار أبيه فيما بعد .

ولا ريب أن تحويل الدار إلى مدرسة كان من شأنه أن غير من شكل البناء الأصلي . فرفعت حوله الجبهتان الغربية والجنوبية ، وأقيمت فيه قاعة الضريح التي تعلوها قبة على حطتين مضلعتين . ويظهر أن الحمام الملاصق للمدرسة وإيوانها من أجزاء الدار القديمة . ويلاحظ أن المهندس استوحى من تقاليد الفن الايوبي الماضية التي كانت ماثلة في الدار نفسها ، وفي بناء المدرسة العادلية المقابل .

ويدل ذلك على أنه توخى أن يجعل هذين البنائين المتقابلين منسجمين كل الانسجام ، وأن يؤلف منهما مجموعة عمرانية ، يكمل فيها جمال الاولى روعة الثانية .

والحقيقة أن واجهتي المدرسة الظاهرية من أجمل ما بنى المماليك . إذ أنهما مشيدتان بالأحجار المنحوتة المتقنة ، وفي أعلاهما كوى مستديرة ، تحيطها زخارف هندسية متألفة من دوائر متداخلة . أما المدخل الرئيسي فهو مبني بأحجار بيضاء وصفراء . ويعلو الباب ثلاثة صفوف عريضة من الكتابات النسخية المزهرة الجميلة (اللوح ٤١ الصورة ٢) . وفوقه قبة نصفية من المقرنصات البديعة البسيطة . أما قاعة الضريح فهي مربعة . وتكسو جدرانها زخارف من المرمر الملون والحجر المنحوت والفسيفساء الزجاجية ، التي تبدو وكأنها مبكرة في هذا التاريخ على أبنية دمشق .



اللوح (٤٢)

المدرسة الجقمقية

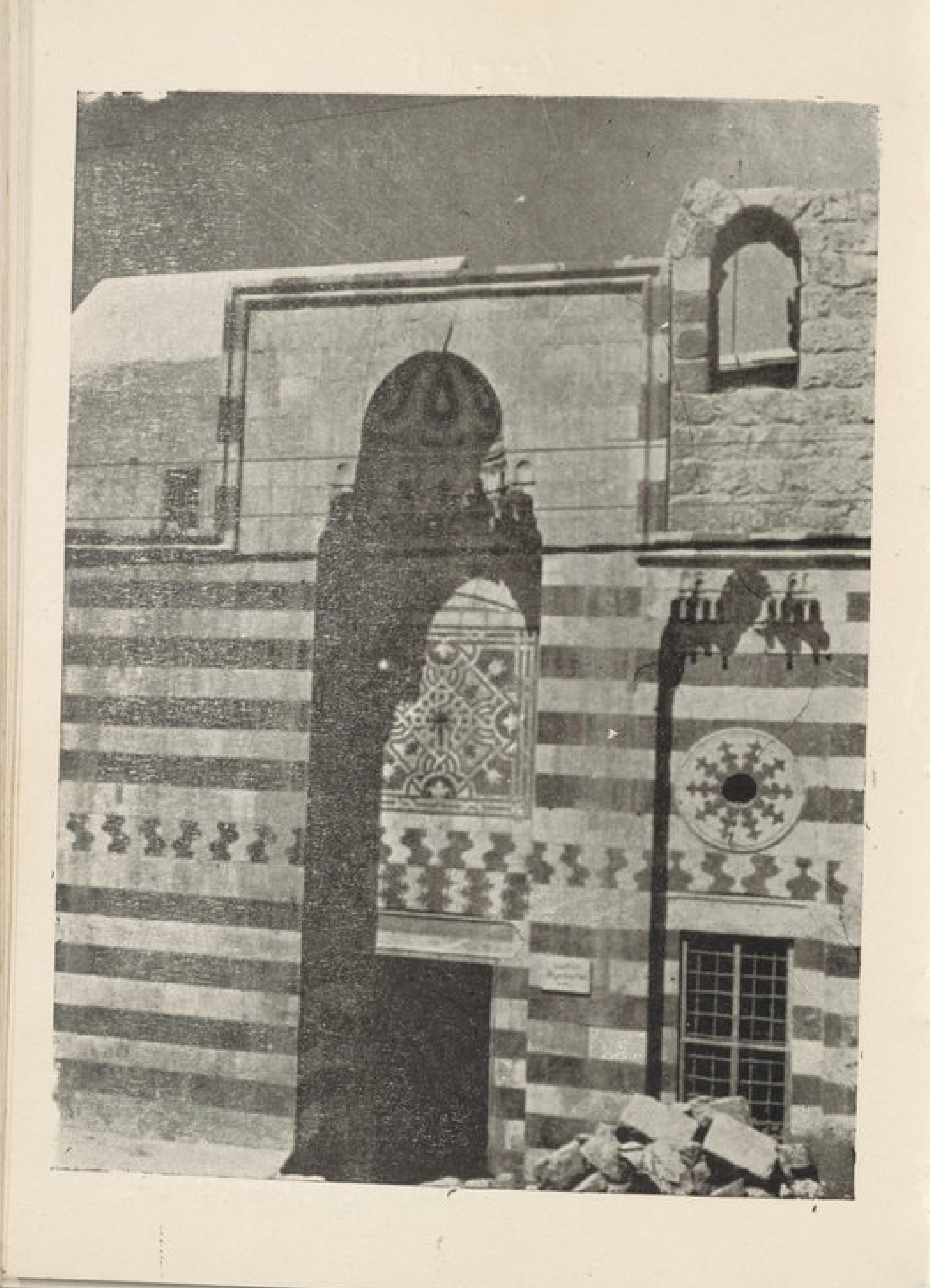
بناها نائب الشام الامير سيف الدين جقمق سنة (٨٢٤ هـ = ١٤٢١ م) مكان مدرسة قديمة احرقت وقت استباحة تيمورلنك دمشق. وصرف عليها مالاً كثيراً، ووقف لها أوقافاً عديدة. فكانت من أوائل ابنية دمشق في القرن الخامس عشر الميلادي.

وتختص هذه المدرسة بميزات فن المماليك في العمارة، من حيث هندسة البناء وزخرفته. إذ أن تصميمها يتبع نظام التعامد، ويشتمل على صحن في وسطه بركة ماء، وحوله أربعة أواوين، قائمة على أعمدة ضخمة، ذات تيجان منحوتة و فوقها أقواس ملونة بلونين، تحمل قناطر صغيرة مزدوجة مفصولة بسوريات جميلة. وتستند السقف عليها (الصورة الثانية من اللوح ٤٣) وفي ركن البناء تربة الواقف ويعلوها قبة.

ولهذا البناء جبهتان مبنيتان بالأحجار الملونة، الأولى: شمالية، وفيها المدخل الرئيسي. وهو عال وفوقه مقرنصات بديعة، ونصف قبة مضلعة، والثانية شرقية فيها نافذة لها إطار رخام ويعلوها صف عريض من الخط الكوفي الذي يمتد على على كل الجبهة، ومقرنصات جميلة مدلاة، ثم نصف قبة متوجة بزخارف حجرية هندسية متشابكة، وذات ألوان مختلفة (الصورة الاولى من اللوح ٤٢).

وجدران المصلى والتربة مزينة بمجموعات غنية من الزخارف المختلفة، التي اشتهرت بها الصناعات السورية وأهمها الزخارف المرمرية المنقوشة والمحفورة والمطعمة.

وقد تهدم قسم كبير من هذه المدرسة أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يتيسر إلى الآن إعادتها إلى ما كانت عليه.



(اللوح ٤٣)

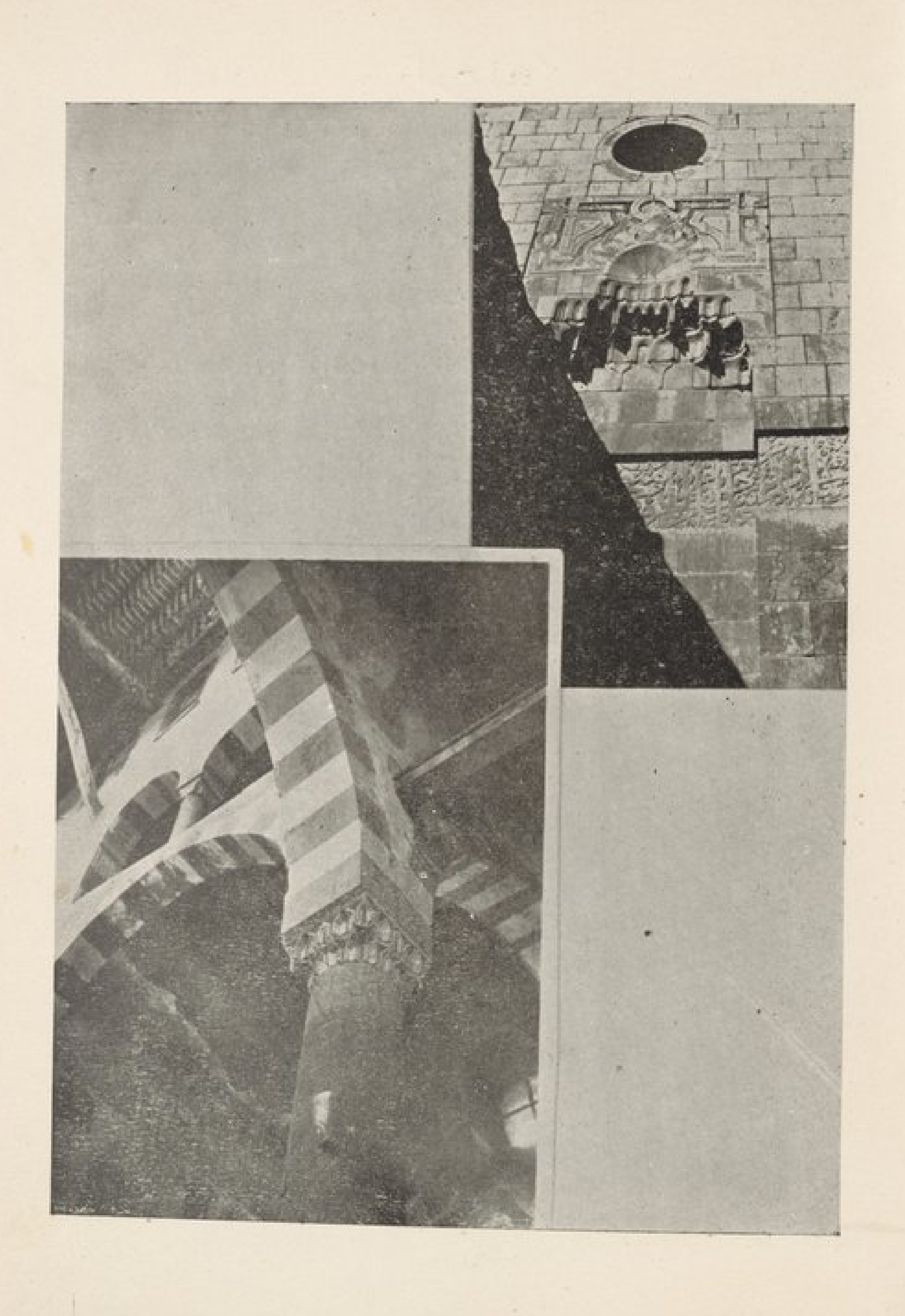
التربة الأفريدونية

شيدها التاجر العجمي شمس الدين افريدون بن محمد الأصفهاني في حي (المنانية)، سنة (٧٤٤هـ = ١٣٤٣م)، وجعلها داراً لتعليم القرآن وبنى فيها تربة، ودفن فيها بعد خمس سنوات.

وقد أتت نموذجاً صادقاً لأساليب العمارة في عهد المماليك، التي انتشرت في أبنية مصر وفي البلاد السورية كالقدس، وطرابلس الشام، وحلب، وغيرها.

وهندسة هذه المدرسة الداخلية لا تختلف عن تخطيطات غيرها. ويتبع تصميمها نظام التعامد. وقوامه أربعة أواوين، يتوسطها صحن مسقوف. أما جبهتها الخارجية التي تتجه الى الشرق على الطريق العامة، فقد عني بتزيينها عناية بالغة، وأفرط في زخرفتها إفراطاً جعلها رشيقة جداً، وظريفة ظرفاً أخرجها عن وقار المعاهد الدينية.

وهذه الجبهة ضخمة البنيان، ويعلوها إفريز طريف، حجارته على لونين، يمتد على طولها ويتوج الباب. وليس له مثيل في سائر العمارات. وفوق عتبة الباب كتابة منقوشة بخط نسخي دقيق ويعلوها صفان من المزررات الملونة ثم لوح كبير مربع من الزخارف الهندسية الحجرية المطعمة والملونة المتشابكة. ثم تلي مقرنصاتها الظريفة ذات الدلايات والصفوف الثلاثة. وفوقها قبة نصفية مزينة بلورات كبيرة. وفي طرفي الباب نافذتان أبعادهما مختلفة ويرى في اللوح (٤٣)، أن اليمنى منهما في صرح ضامر. وفوق عتبتها المزررات، ثم قلادة في وسطها كوة، محاطة بتسعة أحجار سوداء من الشطرنج على سطح أبيض. وفي سقفها بعض المقرنصات.



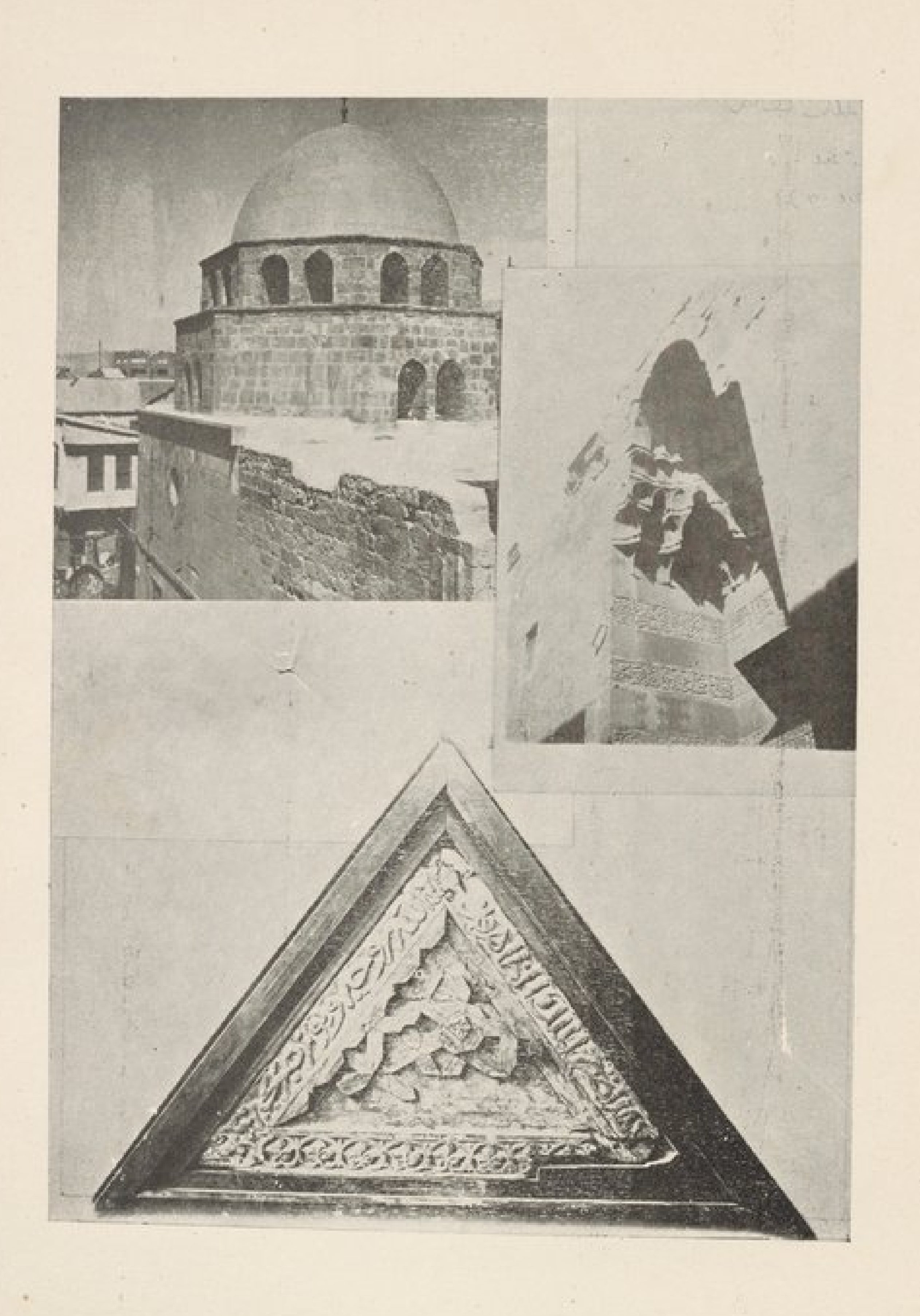
اللوح (٤٤)

تربة اوغورلو

تقع هذه التربة في الصالحية شمالي الجامع المظفري . وقد بناها الأمير سيف الدين اوغورلو العادلي ، ودفن فيها سنة (٧١٩ هـ = ١٣١٩ م) .

وهي من أجمل ترب القرن الرابع عشر الميلادي ، وتنفرد عن أبنية المماليك الأخرى ، ببساطة زخارفها وتناسب أبعادها . ولها جبهة غربية مشادة بالحجارة السوداء والبيضاء ، الضخمة ، المنحوتة جيداً . وعلى يمينها مدخلها الكبير المزين بأشرطة أفقية من الكتابات التاريخية المرسومة بخط نسخي عريض مزهر . وفي وسطها شعار الأمير . وفوقها ثلاثة صفوف من المقرنصات الجميلة التي تعلوها قبة نصفية .

ولم تزل هذه التربة بحالة جيدة ، ولها مكانة فريدة بين أبنية المماليك .





دمشق في العهد العثماني

استولى العثمانيون في زمن السلطان محمد الثاني على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم اندفعوا لغزو الاقطار الاوربية والشرقية . ولم يلبثوا بعد مدة قصيرة أن أسسوا امبراطورية عظيمة امتدت على جزء كبير من القارات الثلاث . وقد ضمت إليها سورية سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦ م) على أثر معركة (مرج دابق) انتصر فيها السلطان سليم الاول على قانصوة الغوري آخر سلاطين المماليك الذي لقي فيها حتفه . ثم دخل الفاتح دمشق . ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عثمانية ، وظلت تحت سيادة سلاطين القسطنطينية الى سنة ١٩١٨ .

وكان لانضوائها تحت الراية العثمانية أثر عميق في تحويل حياتها والتأثير في مستقبلها . وقد جعلها العثمانيون مركزاً لاحدى البشالق الثلاثة التي أقاموها في سورية . وصار يتعاقب على حكمها بشاوات معظمهم جهلاء ليس لهم إلا هم جمع المال وابتذاذه بسرعة ، متخذين في ذلك كل الطرق والوسائل . وذلك لان الباب العالي كان لا يستبقيهم طويلا في ولايتهم ، ويستبدلهم بغيرهم . حتى أنه توالى على دمشق خلال المدة التي مرت بين سنتي (١٠٠٠ — ١١٠٠هـ) مائة وال .

وكان يضاف الى سوء ادارة الولاة عصيان الجنود . إذ أن الانكشاريين كانوا يزيدون الحالة حراجة بتعديهم على السكان ، وفرضهم الاتاوات عليهم . وكثيراً ما كانوا يتنازعون فيما بينهم وينقسمون إلى فئتين أو اكثر . ويخوضون ضد بعضهم المعارك الدامية . كما ان بعض اعراب البادية كانوا يغيرون بين الفينة والفينة على ضواحي المدينة ويروعون سكانها ، فيختل بذلك النظام ويضطرب حبل الأمن .

ولهذه الاسباب كان الاغنياء يحرصون على إخفاء مظاهر ثرائهم فيجعلون دورهم بين الحارات الضيقة ويحيطونها بجدران فقيرة لا تدل على ما تحويه في داخلها من باحات فسيحة مفروشة بالمرمر . وتتوسطها برك الماء الجميلة وتحيط بها الاواوين المزينة بالالواح القاشانية والزخارف المرمرية الملونة والمطعمة والمنحوتة ، وتعلو قاعاتها السقوف الخشبية الثمينة الملونة والمنحوتة .

وعلى الرغم ماكان لنظام دمشق السياسي من تاثير في حياتها العامة وفي عمرانها ، فان هذه المدينة تمكنت في ظل العثمانيين من أن تجد لحياتها الاقتصادية مقومات جديدة ساعدتها على الازدهار . اذ ان موقعها المتوسط في الامبراطورية العثمانية جعلها بمأمن من اغارات الاعداء والتعرض الاحتلال والاستباحة . ولا يخفى أن الحروب التي كانت تحمل عليها هذه الدولة كانت تدور وقائعها في ساحات الدانوب والبلقان . ولهذا تمكنت صناعات دمشق من الازدهار ، وأصبحت منتجاتها تغزو أسواق القسطنطينية . كما أن تجارتها اتسعت بسبب مرور عدد من طرق القوافل الكبرى التي كانت تجتاز الشرق الادنى فيها ، وبسبب نشاط التجارة بين المرافىء العثمانية والمرافىء الاوربية ، ومجيء التجار الاوربيين الى السواحل السورية ليستبدلوا مصنوعاتهم بالمواد الاولية التي تكثر فيها . وكانت دمشق تصل بهم عن طريق مرفا صيدا .

ويضاف الى ذلك أيضا انها غدت ملتقى الحجاج المسلمين ، ونقطة تجمعهم قبل أن يتهيأوا لاجتياز الصحراء ، والوصول الى الحجاز . وكانوا يفدون إليها من أعالي بلاد الرافدين وكردستان وأذربيجان والاناضول والقسطنطينية والبلقان . ولا يخفي أن السلاطين كانوا يحرصون على تنظيم الحج ، اظهاراً لسلطتهم على الحرمين الشريفين وقد جعلوا باشا دمشق امير الحج ، وكلفوه أن يسهر على سلامة الحجاج ، وتأمين انتقال المحمل الشامي عن طريق البحر الى المدينة ومكة المكرمة .

ومن هذا فان دمشق كانت تستقبل كل سنة وفود الحجاج مرتين . عندما يقدمون إليها ويبتاعون من أسواقها جميع ما يلزمهم من رواحل ومؤن وأغذية وغيرها لقطع الصحراء ، ومرة ثانية عندما يعودون من الحج فيحلون فيها ويبيعون ما حملوه معهم من توابل وعبيد وجوار وبضائع الشرق الاقصى التي كانت تباع في أسواق الحجاز .

* * *

ونعوز الآن الى شرح تطور دمشق العمراني في هذه الحقبة من تاريخها . وقد أهملت العناية بأسوارها وأبراجها ، وذلك لانها أصبحت بعيدة عن المعارك التي كانت تجري غالباً في ميادين الدانوب والقوقاز . ثم أن تقدم فن المدفعية جعل من الانصراف عنها أمراً محتوماً له ما يبرره . ولهذا فقد أخذ الناس يبنون

بيوتاً متواضعة على الاسوار ، ويستفيدون من أساساتها . وامتلأت الخنادق التي كانت أمامها بما كان يلقى بها من أنقاض وغيرها . وتركت القلعة وشأنها ، وانتقلت الحياة الرسمية منها ، ولم يبق فيها إلا حاكم كان يسميه السلطان لتمثيل سلطته في المدينة ولمراقبة الباشا الحاكم . أما أبواب السور فانه لم يعد لها شيء من الفائدة أيضاً اللهم إلا انها كانت في هذا العصر مناطق اجتياز ، تدخل منها البضائع الى المدينة فتجبى منها هناك المكوس البلدية المفروضة عليها . وقد اتصلت الأحياء الخارجية نهائياً بجسم المدينة ونشأ حي جديد في الجنوب الشرقي من القلعة ، وهو حي القنوات وأصبح مقر الاغنياء والمتنفذين .

* * *

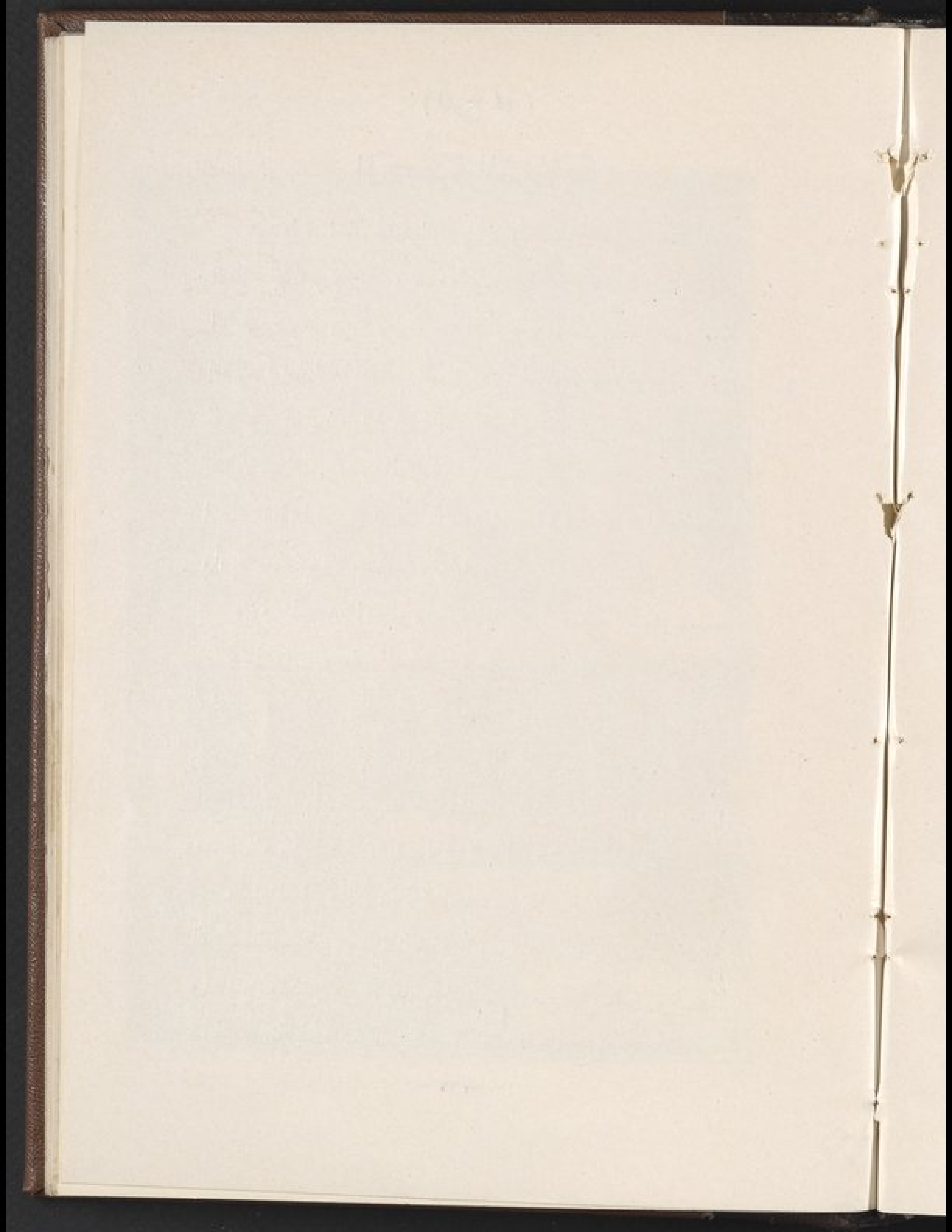
وقد بنى السلاطين والولاة العثمانيون في دمشق عدداً من المنشآت الجميلة المختلفة كالتكايا والجوامع والحمامات والقصور والخانات . ويلاحظ أن نموذج المدرسة المعماري انبعث في هذا العصر على شكل جديد ، واتخذ شكل التكايا التي تتألف من مجموعات من الأبنية ، تجتمع حول باحة واسعة ، باسقة الاشجار ، غزيرة المياه ، وتحوي مسجداً وغرفاً للدراويش . ومنها التكية السليمية التي بناها السلطان سليم الاول شرقي المرج الاخضر ، والتكية السليمانية التي شيدها ابنه السلطان سليمان القانوني غربي التكية الأولى ، وهي من أجمل الآثار الدمشقية . وقد شيد أيضاً سنان باشا جامع السنانية المعروف ، ودرويش باشا جامع الدرويشية ، والتربة المعروفة باسمه ، ومراد باشا جامع النقشبندي ، وسليمان باشا خان الحرير ، وأسعد باشا العظم الخان الذي يحمل اسمه وقصر العظم المشهور .

على ان معظم هذه المنشآت لا تحمل الطابع الدمشقي . إذ أن فن العمارة العثماني الامبراطوري ، كان قد نشأ في القسطنطينية ، وامتد على قسم كبير من البلاد العثمانية ، وذلك بفضل جهود المهندسين خير الدين وكمال الدين واياز وسنان . وينسب إلى هذا الاخير نحو ثلاثمائة وثلاثة وأربعين بناء شيدت في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وقد استوحى هؤلاء المهندسون فنهم من تقاليد الفن البيزنطي الماثلة في جامع اياصوفيا ، الذي كان كنيسة كبيرة بنيت في زمن جوستنيان العظيم . فوفقوا بين اشكال هذا البناء وبين مقتضيات الصلاة ، وجعلوا عليه

قبة عظيمة مستندة على زوايا وقلبوا تخطيطه الطولاني الى تخطيط عرضاني ، وحذفوا منه الدعائم والاعمدة الكثيرة التي تمنع المصلين من رؤية المحراب والامام ، واضافوا إلى شكله الخارجي منارات اسطوانية او ذات اضلاع كثيرة تنتهي برؤوس مخروطية مدببة .

وقد قبل المعماريون الدمشقيون هذه المبادىء ، وعمموها في منشآتهم التي اكثرت من استعمال القبب والقبيبات ، واقتصدت في استخدام الزخارف ، وجعلت الالواح القاشانية عنصراً رئيسياً في التزيين . وقد اضيفت هذه الابنية الجديدة الى الابنية القديمة فأغنت ثروة دمشق الاثرية ، ونوعت تأثيراتها البديعية .





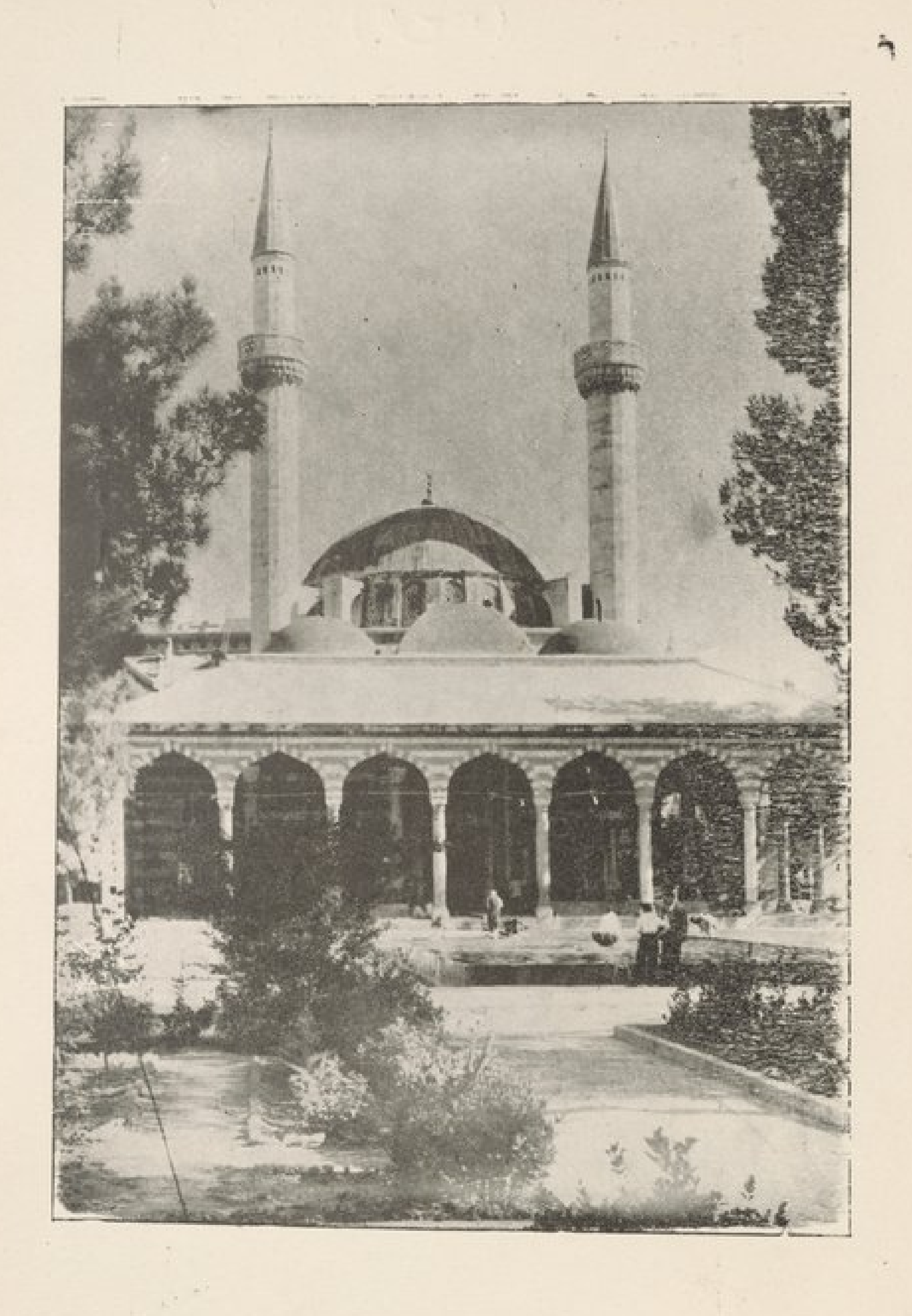
(اللوح ٤٥)

التكية السليمانية

شيدها السلطان سليمان القانوني غربي التكية السليمية، مكان قصر للملك الظاهر بيبرس ، هدمه تيمورلنك . وكان يدعى (القصر الأبلق) . وهي من أكبر الابنية الأثرية في دمشق ، وأعظمها وقد اتخذ في انشائها التصميم العثماني ذي القباب والاروقة ، الذي ظهر في القسطنطينية في آخر القرن الخامس عشر ، وأول القرن السادس عشر الميلادي . ومهندسها سنان المشهور . وقد استمر بناؤها ست سنوات ، وانجزت سنة (٩٦٨ هـ — ١٥٦٠ م) . وأريد أن تحوي مسجداً وتكية .

ويقع المسجد الى جنوبها . وأمامه صحن فسيح تشغل وسطه بركة واسعة . وتعلو المسجد قبة عظيمة على حطة ، تطوف بها كوات من الجص المفرغ ، ويسندها من الخارج ركائز صغيرة مجوفة ، ومن داخل المصلى ذي الشكل المربع ، قناطر محمولة على أربع دعائم . ويحدها من طرفيها مئذنتان كثيرتا الاضلاع ورأسها مدببان ، وفي أسفل ثلثها العلوي شرفتان مزينتان بالمقرنصات .

وأمام المصلى رواقان ، يعلو الواحد منهما ثلاث قبب صغيرة ، ويعلو الثاني سقف مائل . ويستند هذا الرواق على ستة أعمدة غرانيتية ودعامتين جانبيتين من الأمام وعلى عمودين من كل جانب بواسطة قناطر ملونة بالحجارة السوداء والبيضاء (اللوح ٤٥) .

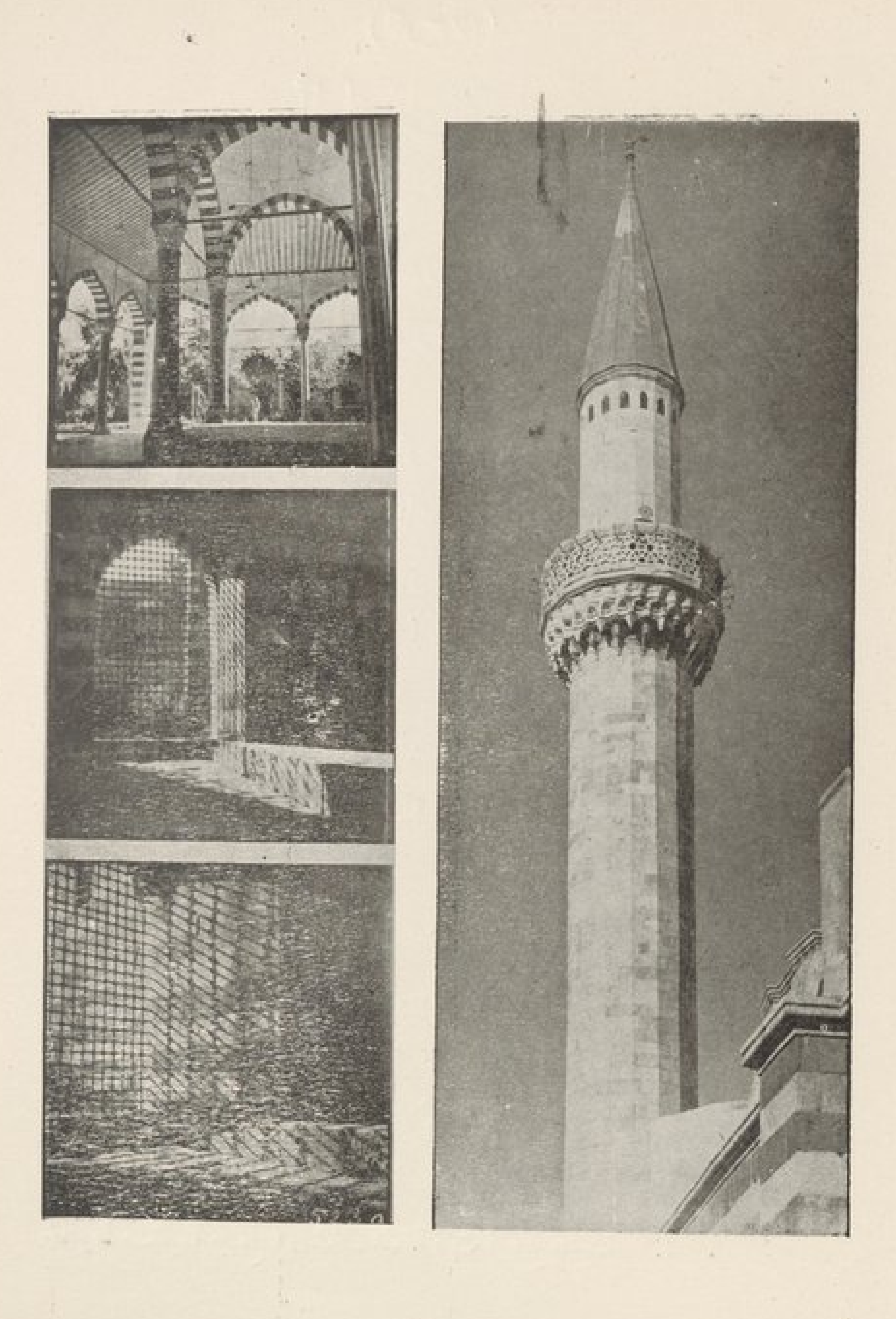


(اللوح ٤٦)

التكية السليمانية

ويدخل الزائر إلى التكية السليمانية من ثلاثة أبواب في شرقها وغربها وشمالها . وفي هذه الجهات تقوم ثلاثة أجنحة مستطيلة غير متصلة ببعضها ، الشرقي والغربي عموديان على المسجد ، ولكل منهما رواق محمول على أعمدة وتعلوه قبيبات صغيرة ، ووراءه ست قاعات في كل منها مدخنة وفي سقفها قبة متوسطة . أما الجناح الشمالي فهو مواز للمسجد ، ويشبه الجناحين المتقدمين في تنظيمه إلا أنه مخصص للمطبخ ومستودعات التكية . والى جانبه بناءان يتصلان به ويكملان الجناحين ، ويتأخران قليلا عنهما وليس لهما أروقة . كان يأكل فيهما الفقراء .

ومهما يكن فان أبنية تكية السلطان سليم منشأة على تخطيط وقواعد العمارة العثمانية . وتختلف عن التقاليد الشامية في البناء التي ظهرت في منشآت كثيرة رأينا بعضها . بيد أن زخارفها الكثيرة بما فيها من ألواح القاشاني التي تزين ما فوق الأبواب وجدران حرم المسجد والألواح المرمرية المطعمة التي تزين هذه الجدران . وتعد من نفائس الصناعات الدمشقية في ذلك العهد .



(اللوح ٤٧)

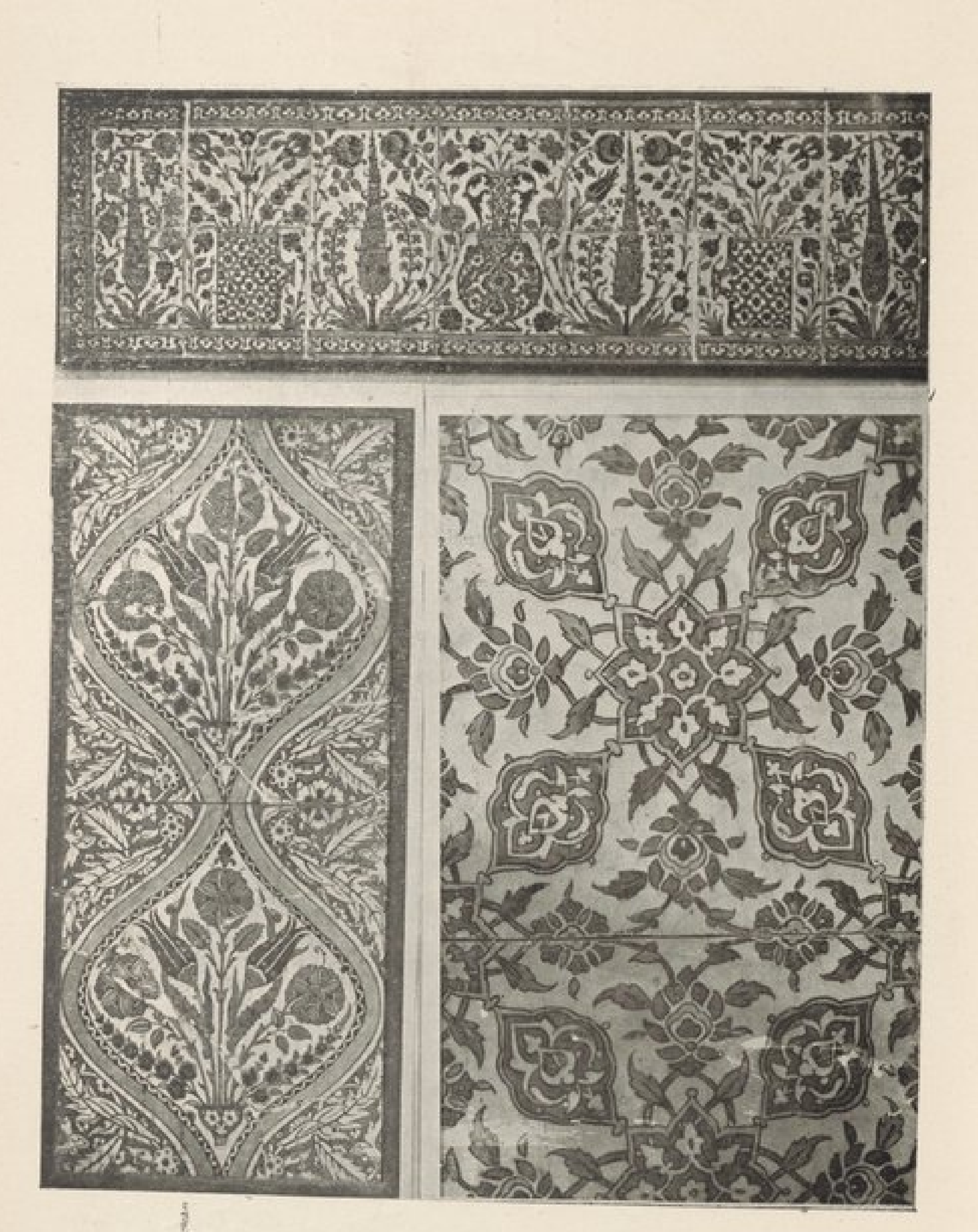
ألواح قاشانية

دمشقية

يعود عهد صناعة القاشاني في سورية الى زمن العباسيين وقد بذت دمشق وغيرها من المدن السورية بدقة مصنوعاتها القاشانية وجمالها بين القرنين الرابع عشر والثامن عشر . ويظهر ان مصانعها كانت تقع في شرقي المدينة . خارج الباب الشرقي ، حيث اكتشفت آثار عدد منها .

والقاشاني ألواح خزفية مربعة غالبا ، وتنقش على سطوحها زخارف ملونة بالأزرق النيلي والأزرق السماوي والأخضر وأحيانا الأحمر . وتحاط هذه الزخارف بخطوط سوداء دقيقة تجعلها بارزة على اساسها الأبيض . ثم تطبخ فتكسب سطحها طبقة زجاجية رقيقة . وقد انتشر استعمالها كثيراً في تزيين جدران العمارات في العهد العثماني . وأشهر الأبنية التي زينت بها التكية السليمانية وتربة الشيخ محيي الدين بن عربي والتكية السليمانية ، وجامع درويش باشا وعدد من البيوت الخاصة .

وتتألف الزخارف القاشانية من المواضيع الكتابية والنباتية والهندسية . وتنص المواضيع الكتابية على آيات قرآنية ، أو جمل تتعلق بحوادث تاريخية مكتوبة بخط فارسي . وتنقسم المواضيع النباتية الى أشكال طبيعية كأزهار الزنبق والقرنفل وأشجار السرو (اللوح ٤٧ الصورة الأولى) وتتخللها أحيانا المشربيات ، والى أشكال مبسطة عن الأشكال الطبيعية . أما المواضيع الهندسية فانها تتألف من خطوط مستقيمة تجتمع في أشكال مختلفة ذات فروع عديدة .



(اللوح ٤٨)

قصر العظم

شيده والي دمشق أسعد باشا العظم سنة (١١٦٣ هـ – ١٧٥٠ م) في موضع (دار الذهب) التي ترق إلى عهد تنكز نائب الشام. وهذا الموضع قسم من صحن معبد جوبيتر القديم. ولا يستغرب أن تكون قد انشئت عليه في عصر الأمويين دار معاوية كما يقال.

وقد أراد أسعد باشا أن يكون هذا القصر لائقاً بعظمته. وكان متكبراً وحازماً ومحباً للعمران. فانفق فيه أموالاً طائلة، وحشد له من الصناع وأرباب الحرف عدداً كبيراً، وجمع كميات كبيرة من العمد والرخام والبلاط والقاشاني والأخشاب وغيرها، وشغل في أعمال البناء وانصرف عن غيرها. حتى انتهى القصر اخيراً وأتى آية في جمال البناء

ويلاحظ أن منظره الخارجي بسيط ولا يدل على ما في داخله من مظاهر الثراء. أما داخله فانه يشتمل على مجموعتين متميزتين من الأبنية. وهما السلاملك والحرملك ويلحق بهما المدخل، والمطبخ والحمام.

أما المدخل فيقع في غربه وأمامه رحبة صغيرة تتصل بسوق البزورية. وله باب كبير يتوسطه باب آخر صغير. وهو ممر عريض معقود بمصلبات حجرية. ثم يأتي السلاملك المخصص لاستقبال الضيوف ويشغل الجهة الجنوبية الغربية من القصر، وله صحن مستطيل في وسطه بركة ماء، وايواناً جنوبي واسع في طرفيه قاعتان، وفي شماله قاعة اخرى، وفيه درج يؤدي إلى غرف الطابق الثاني وغير ذلك.

أما الحرملك فانه يشغل معظم أقسام القصر ويمتد صحنه من الشرق إلى الغرب على شكل مستطيل، وفيه بركتان، وتحيط به القاعات والرواق الشمالي. وفي جنوبه ايوان واسع مزخرف بأنواع الزخرفة. ويرينا اللوح (٤٨) مشهد هذا الصحن من إحدى قاعات القصر، كما نرى قبة النسر للمسجد الأموي من بعيد.



(اللوح ٤٩)

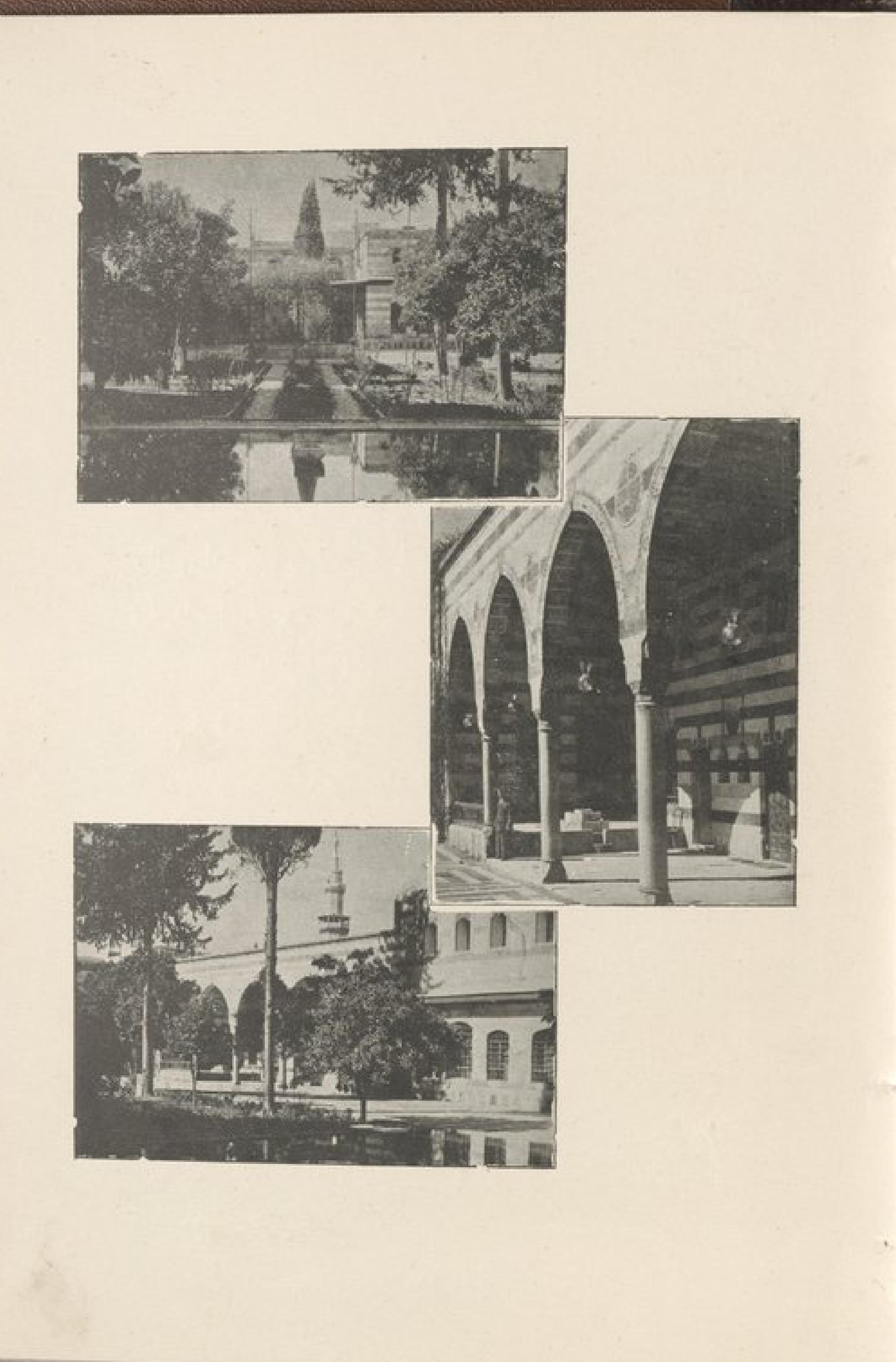
قصر العظم

وتمثل الصورة الأولى من اللوح (٤٩) منظر صحن الحرملك مع بركتيه المستطيلة والمضلعة. كما ان الصورتين الثانية والثالثة تمثلان رواقه الشمالي.

ويختص الحرملك بقاعاته الواسعة ذات الجدران المرخمة المحفورة والمنزلة والملونة، والتي تزين بعضها فساقي الفسيفساء المجملة بالرخام الملون والمذهب والمحفور والمجزع والمقصص، وتعلوها سقوف خشبية مدهونة ومحفورة ومزخرفة بأبدع الزخارف الهندسية والنباتية والخطية التي تعد من أجمل مبتكرات الصناعات الدمشقية الفنية، وأجمل هذه القاعات القاعة الكبرى المتألفة من ثلاثة أواوين متناظرة. أينما اتجهت العين في اطرافها تجد ما يبهجها من آثار الصناعات الدقيقة والنقوش ومحاريب المقرنصات

ويشغل الحمام الزاوية الشرقية الجنوبية من الحرملك. وهو رحب. ويختص أنه يشبه الحماميم العامة بما له من أقسام، ويزيد عليها بزخارفه المتنوعة. ويقع المطبخ في زاويته الشمالية الغربية، ويتألف من دائرة مستقلة حول صحن صغير تتوسطه بركة ماء. وفي شرق هذه الدائرة قاعة المطبخ الكبيرة، وفيها عقود من الحجارة ومواقد كبيرة على جدرانها، وتوجد كذلك غرف عديدة للمؤن والخدم حولها.

ولا ريب أن فن عمارة هذا القصر لا يزيد شيئاً من التجدد على المنشآت الدمشقية لأنه يتمشى على القواعد القديمة لانشاء البيت السوري من حيث التخطيط، وتنظيم القاعات وبناء المداميك بالأحجار الملونة البيضاء والحمراء والسوداء المتعاقبة. غير أن زخرفته الفنية تعتمد على كل ما عرفته الفنون الدمشقية من أساليب تطورها في القرن الثامن عشر، ويزيد عليها بعض الأشكال التي حملها الفن العثماني الى دمشق.



(اللوح ٥٠)

خان أسعد باشا

شيده أسعد باشا العظم سنة (١١٦٦ هـ - ١٧٥٢ م). وهو أحد الخانات التي تجمع داخلها الحوانيت التجارية والمساكن المعدة للتجار الغرباء.

وقد بني على قواعد العمارة العثمانية. غير أنه يمثل ظرف الأبنية الشامية ورشاقتها. وقد جعلت جدرانه وقناطره من الحجارة البيضاء والسوداء. وفيه باحة مركزية فسيحة تتوسطها بركة ماء مضلعة، وتحيط بها من جميع جهاتها حوانيت تجارية ويمكن الصعود إلى الطابق الثاني على سلالم قائمة على طرفي المدخل، وتؤدي الى ممرات تنتظم غرف السكن حولها.

ويغطي سقفه قبة متوسطة حولها ثماني قباب متوزعة بصورة متناظرة على أطراف محورين متعامدين. وهي تستند بواسطة قناطر على أربع دعائم قائمة حول الباحة المركزية (الصورة الثانية من اللوح ٥٠).

وجبهة هذا الخان الغربية قطعة فنية نادرة مبنية من الأحجار الملونة. وفي كل طرف من طرفي المدخل ثلاث سويريات حجرية مزينة بنقوش نباتية وهندسية مختلفة. وفوقه صفوف من المقرنصات المدلاة، ونصف قبة مضلعة (الصورة الأولى من اللوح ٥٠) ومن كل من طرفي هذا المدخل كوة مزخرفة ولها مقرنصات وتحتها محراب صغير جميل.



مصادر مختصرة

الدارس في تاريخ المدارس : للنعيمي : تحقيق الأمير جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨
تاريخ دمشق : ابن عساكر
معجم البلدان : ياقوت
الرحلة : ابن جبير
خطط الشام — ٦ أجزاء — : محمد كرد علي دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨
دمشق مدينة السحر والشعر : « « « القاهرة ١٩٤٣
غوطة دمشق : « « « دمشق ١٩٤٩
نزهات أثرية : سليم عادل عبد الحق دمشق ١٩٤٧
دمشق القديمة : صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٤٥
قصر أسعد باشا العظم : « « « دمشق ١٩٤٦
ابنية دمشق الأثرية المسجلة : « « « مجلة الشرق ١٩٤٨
مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس : للعلوي : تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٤٧
مساجد دمشق : لابن عبد الهادي تحقيق أسعد طلس دمشق ١٩٤٢

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE
SHORT BIBLIOGRAPHY

Creswell (K.A.C.) : Early Muhammedan Architecture. (Oxford.1392)
Dusssaud (R.) : Le temple de Jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétienne et musulmane (Syria 1922)
« « : Topographie historique de la Syrie antique et médiévale.Paris. 1927.
Ecochard (M) : Palais Azem de Damas.
« « : Les Bains de Damas.
Gaudefroy-Demonbynes: La Syrie à l'époque des Mamlouks. Paris 1923.
Hartmann (R.) : Art. Damas, dans l'Encyclopédie de l'Islam.
Jalabert R. P.) : Art. Damas dans Dic.d'archéologie chretienne et de liturgie.

Kermer (A Von) : Topographie von Damascus. Vienne (1854-55).
Herzfeld (E.) : Damascus : Studies in Architecture, I, II, III, and IV, from Vol. IX, X, XI - XII, and XIII of Ars Islamica.
Lammens (H.) : Etudes sur le règne de Mo'âwiya. Beyrouth 1908
« « : Etudes sur le Califat de Yézide T. Beyrouth 1921. Etudes sur le siècle des Omeyyades. Beyrouth 1930.
« « : Walid I et la Mosquée des Omeyyades à Damas. Be routh 1930.
Lorey (de Et) : Les Mosaïques de la Mosquée des Omeyyades à Damas. Paris 1930.
« « et Sauvaget : Le palais Azem à Damas. Paris. 1929.
Marcet (G.) : L'art de l'Islam. Paris 1946.
Moaz (Kh.) : Le mausolée d'Ibn al-Muqaddam. Damas. 1929.
Saladin : Manuel d'art musulman. 2 vol. Paris. 1907.
Sauvaget (J.) : La citadelle de Damas. Syria 1930.
« « : L'architecture Musulmane en Syrie. 1934.
« « : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, dans la Revue des Etudes Islamiques. 1934.
« « : Monuments historiques de Damas, Beyrouth. 1935.
« « : Damas et la Syrie du Sud. Paris 1936
« « : Le plan antique de Damas. Syria 1949.
Sauvaire (H.) : Déscription de Damas. Journal Asiatique 1894-1896.
Vincent (H.) : Canaan d'après l'exploration récente, Paris 1914.
Wulzinger (H) et Watzinger (C) Damascus, I: Die Antike Stadt, II: Die Islamische Stadt, Berlin et Leipzig. 1924.



أسماء الأمكنة الأثرية المسجلة في دمشق

والمبينة مواضعها في المخطط اللاحق

الآثار الرومانية

رقم التسجيل

١ قسم السور الممتد من باب السلام إلى باب توما

٤ باب شرقي

١٣ القناة الرومانية

١٤ حفريات القديس حنانيا

٢ — الآثار الأموية

١٥ الجامع الأموي

٣ — الآثار الفاطمية

١١٨ قبر السيدة فاطمة

٤ — الآثار السلجوقية

١٦ ضريح صفوة الملك

١١٩ ضريح السيدة سكينة

٩٣ جامع القدم

٥ — الآثار النورية

٢ برج نور الدين

٧ باب الصغير

١٧ بيمارستان نور الدين

١٨ حمام نور الدين

١٩ المدرسة النورية الكبرى

٧٣ ست الشام (تربة الأمير نور الدين بن زين الدين)

٧٥ دار الحديث نور الدين

٦ — الآثار الأيوبية

٣ برج الصالح أيوب

٥ باب توما

٦ باب السلام

٨ باب الجابية

٩ باب الفرج

١٠ باب الفراديس

١٢ القلعـــة

٢٠ المدرسة الفروخشاهية

٢١ المدرسة الشامية البرانية

٢٢ ضريح صلاح الدين

٢٣ ضريح طلحة — ابن المقدم

٢٤ المدرسة العادلية الكبرى

٢٥ المدرسة العزية — البرانية

٢٦ جامع التوبة

٢٨ النبي يونس (تربة مجهولة)

٤١ جامع السادات (مسجد القصب)

٤٧ ضريح القيمرية — تربة القيمرية

٥٨ المدرسة العمرية

رقم التسجيل

٥٩ جامع الخاتونية
٦٠ تربة البدري
٦١ جامع الحنابلة (جامع المظفري)
٦٢ « ركن الدين (المدرسة الركنية البرانية)
٦٣ جامع الماردانية (المدرسة الماردانية)
٦٤ ضريح اليغمورية (تربة أمة اللطيف)
٦٥ المدرسة الاتابكية
٦٦ مدرسة الصاحبة
٦٧ بيمارستان القيمري
٧٤ ضريح مغفل (تربة مجهولة ـ في الدحداح)
٧٦ السلطان حسن (التربة النجمية)
٧٧ ضريح محمود بن زنكي
٧٨ المدرسة القليجية
٨٥ تربة الاخنائية (المدرسة الأخنائية)
٨٦ حمام السلطان
٩٥ حمام السروجي
٩٦ المدرسة الجهاركسية
٩٧ ضريح ابن سلمي (تربة ابن سلامة الرقي)
٩٨ ضريح الفرنطي (التربة الفرنثية)
٩٩ التربة الحافظية ـ ستي حفيظة
١٠٠ المدرسة المرشدية
١٠٢ المدرسة الناصرية
١٠٣ المدرسة البدرائية
١٠٦ جامع ستي رابعة (السيدة رابعة العدوية ـ الشامية)
١٠٨ جامع خالد بن الوليد
١١١ « العادلية الصغرى
١١٢ مسجد الجراح
١١٤ دار الحديث الاشرفية
١١٦ تربة منقال

٧ ـ آثار المماليك

١١ باب كيسان
٢٧ حمام الجوزة
٢٩ جامع يلبغا
٣٠ المدرسة الظاهرية
٣١ سبيل البريدي
٣٢ جامع تنكز
٣٣ الولي الشيباني (التربة الجيعانية)
٣٤ جامع افريدون العجمي (المدرسة الافريدونية).
٣٥ ضريح اراك (تربة آراق)
٣٦ حمام الورد
٣٧ جامع منجك
٣٨ « التينبية (التربة اليشبكية)
٣٩ « الرشيدية (المدرسة الرشيدية)
٤٠ سبيل الخزنة (الأمير سيف الدين)
٤٢ جامع التوريزي
٤٣ حمام التوريزي
٤٤ المدرسة الجقمقية
٤٥ مئذنة جامع هشام
٤٦ « « القلعي
٤٨ جامع سيباي (المدرسة السيبائية)

رقم التسجيل

٦٨ تربة ستي خاتون (التربة العادلية)
٦٩ مدرسة التابوتلي (التربة التكريتية)
٧٠ قبة النصر
٧٩ دار الحديث تنكز
٨٠ الشيخ النحلاوي (التربة الكوكبائية)
٨١ المدرسة القفشلية
٨٢ جامع الطاووسية (خانكاه اليونسية)
٨٣ جامع السنجقدار (ارغون شاه)
٨٤ حمام الرفاعي
٨٧ الشيخ حسن (التربة التنكزية)
٨٨ جامع الصابونية (المدرسة الصابونية)
٨٩ جامع المعلق
٩٤ حمام الزين
١٠٤ جامع الجوزة
١٠٥ « النحاسية (المدرسة النحاسية
- خانقاه)
١٠٧ جامع الشيخ رسلان
١٠٩ التربة البدرية - ٢
١١٠ المدرسة الخيضرية
١١٣ التربة الكججكورية - التربة الكججكنية
١١٥ المدرسة الدلامية
١٢٠ تربة الامير غورلو

١٢١ مئذنة جامع القاري
١٢٢ تربة كعب بن أبي
١٢٣ « معاوية
١٢٤ التربة الخوارزمية
١٢٥ « القوامية

٨ - الآثار العثمانية

٤٩ التكيتان (السليمية والسليمانية)
٥٠ مسطبة سعد الدين (الزاوية الجباوية)
٥١ خان الحرير (درويش باشا)
٥٢ جامع درويش باشا
٥٣ ضريح « « (تربة درويش باشا)
٥٤ جامع سنان باشا
٥٥ خان سليمان باشا
٥٦ قصر العظم
٥٧ خان أسعد باشا
٧١ جامع محي الدين بن العربي
٧٢ مطعم السلطان سليمان العسكري
(مطبخ تكية السلطان سليم)
٩٠ مكتب السنانية
٩١ حمام فتحي
٩٢ خان الجمرك
١٠١ جامع النقشبندي (جامع مرادباشا)
١١٧ جامع الشيخ عبد الغني

- الفهرس -

